

الوطنية فى عالم بلاهوية

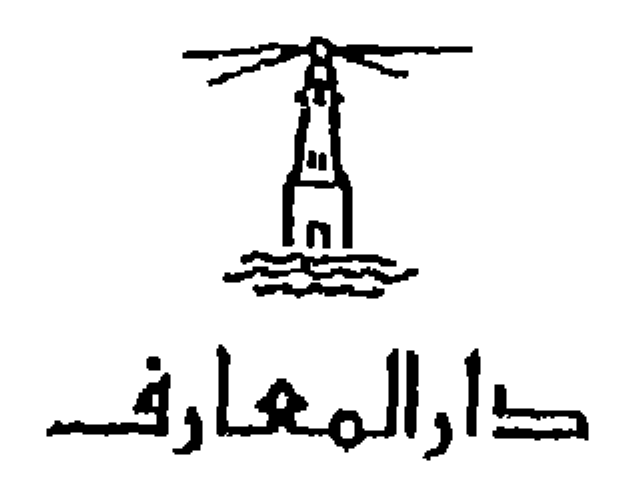
تحديات العولمة

د/حسين كامل بهاء الدين

دكتور حسين كامل بهاء الدين

الوطنية فى عالم بلا هوية

« تحديات العولمة »



دار المعارف

فكرة الغلاف : أ . د . سامى عبد العزيز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

المحتويات

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثانى : الآثار الجانبية وردود الأفعال للعولمة	٧١
- الآثار المحتملة على الدولة ومسئولياتها	٧١
- الآثار الاجتماعية	٧٢
- الاثار السياسية	٧٩
- الأمـن	٨٢
- البيئـة	٨٣
- الثقافـة	٨٤

الباب الثالث : الهوية والانتماء « العرقية والوطنية والقومية »

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٨٩
التعريـف	٩٠
الفصل الأول : الوطنية فى مصر	٩٣
مقومات الوطنية فى مصر :	٩٦
- الجنس والعرقية	٩٦
- الوحـدة	٩٧
- الديـن	٩٩
- الإحساس المشترك بالخطر	١٠٠
- الاستقرار والتجانس	١٠١
- اللغـة	١٠٢
- الحياة الاقتصادية	١٠٢
الفصل الثانى : مشروعية الوطنية فى عصر العولمة	١٠٥
الفصل الثالث : القومية فى عصر الكيانات الكبيرة	١١٦

الباب الرابع : الأمل والعمـل

الموضوع	الصفحة
تمهيد	١٢٣
الفصل الأول : التعليم والمستقبل	١٢٧

الموضوع	الصفحة

الوطنية فى عالم بلا هوية
الانتماء فى زمن الفضاء

مقدمة :

مع حلول الألفية الثالثة فى برد الشتاء القارس بعواصفه الهوجاء وأمواجه الهادرة ، تدخل البشرية منعطفاً خطيراً ، تدفع فيه القوى الطاردة المركزية للعولمة الناس ، شعوباً ودولاً وأفراداً ، إلى طريق جديد .

العولمة قدر مكتوب ، فلقد دخلنا فعلاً أول الطريق المجهول ، تدفعنا فيه جميعاً قوى عاتية أطلقت من عقالها ، ونتزاحم فيه جميعاً فى صراع رهيب . هل يا ترى هو سباق نحو القاع ، أو هو تدافع نحو الهاوية ، أم هو الحلم المخادع دائماً للبشرية مجتمع الأمل والعدل والسلام ؟

العولمة أصبحت واقعاً، والطريق إليها طريق تتلاحق فيه الأضواء المبهرة والعتمة القاتمة، ولكن فى الأفق تلوح طاقة أمل تحتاج إلى قدر هائل من العمل ، هل هى نهاية التاريخ كما يدعى " فوكوياما " اليابانى الأصل والمنتشى بالحضارة ؟ أو " التكنولوجيا "

الأمريكية ؟ أم هى مرحلة صدام حضارات مروعة كما يصورها صامويل هنتينجتون (*Samuel Huntington*) ؟

الأول يستنسخ من جديد الحتمية التاريخية التى يشير لها " هيجل وماركس " ولم يكبح جماح حماسه مصير النظريتين الجدلية الهيجلية والماركسية ، والثانى يستحدث حرباً صليبية من جديد ، مبشراً بصدام بين الغرب والحضارة الإسلامية والكونفوشيوسية ، ويبشر بالهيمنة الغربية .

أم أن الأمر لا يعدو أن يكون دورة جديدة من دورات الزمن ، تتهيأ للبشرية فيها فرص فريدة ، إذا لم ينس الانسان فيها إنسانيته ، ولم تتفش حالة التسمم التكنولوجى التى أصابت الكثيرين فى الغرب ؟

هل يمكن أن يتحول المنعطف التاريخى الخطير إلى منصة انطلاق واعدة لعصر جديد يحمل خيراً كثيراً للإنسانية كلها ، ويفتح أمامها آفاقاً لم تخطر على عقولهم من قبل ؟ تجعلهم أكثر أمناً واستقراراً ، أفضل صحة وعافية ينعمون فيه بدفء إنسانى واطمئنان أخلاقى ، فى عالم يسود فيه التراحم والتفاهم ويعلو فيه التكافل والاهتمام بالآخرين ، تلعب فيه الاكتشافات العلمية والتكنولوجية دوراً مبهراً فى رفع مستوى الحياة للفقراء والمحتاجين وتأخذ بيد غير القادرين ، وتخلق فرصاً جديدة للعجزة والمعوقين ، وتتفتح فيه أبواب الشفاء لمن فقدوا الأمل فى الحياة .

عصر جديد تتوازن فيه النهضة التكنولوجية الهائلة ، والثورة المعلوماتية الهادرة ، مع الاعتبارات الإنسانية والقيم الأخلاقية، وتسود فيه قيم العدل والترابط الاجتماعى ، وتسمو فيه الفنون والآداب .

عصر جديد تتلازم فيه آفاق التقدم فى عصر العولمة ، مع روابط الانتماء والولاء للإنسان والعائلة والوطن ، وتتعايش فيه إمكانات العولمة مع مسئوليات الالتزام ، وقيم الهوية والحضارة .

القاهرة فى يناير ٢٠٠٠

الباب الأول

إرهاصات ومقدمات

« تحديات الألفية الجديدة»

الفصل الأول

ثورة معلوماتية
وثورة اتصالات لم يسبق لها مثيل

لقد حدثت في نطاق المعلومات وطرق تنظيمها وتبويبها وتوظيفها ثورة لم يسبق لها مثيل من قبل ، اللهم إلا في القرن الخامس عشر سنة ١٤٥٥حين اخترع " جوتنبرج " آلة الطباعة ، والقدرة الهائلة الآن " للسوبر كومبيوتر " والقوة المحركة الأساسية له وهي " المايكروبروسيسور " Microprocessor تشبه ثورة الطباعة ، ولكنها مضروبة في آلاف بل ملايين من المرات .

فلأول مرة يتضاعف حجم المعرفة الإنسانية مرة كل١٨ شهراً، بل إن قدرة الكومبيوتر تتضاعف هي الأخرى مرة كل ١٨ شهراً ، ويصغر حجمه إلى النصف مرة كل ١٨ شهراً ، وبالتغيير والتطوير الهائل الذي يجري الآن على " الميكروبرسيسور " القلب والمحرك "للسوبر كومبيوتر" فإن احتمالات هذه الثورة تبدو لا حدود لها .

فهناك الآن قدرة على إنتاج شريحة في حجم ظفر الإصبع تتسع لما يحتويه ١٠٠ مليون إلى مليار " ترانزستور " ، وفي القريب العاجل فانه في الطريق الآن " سوبر كومبيوتر " تبلغ قدرته ما كان يوازي قدرة ١٦ " سوبر كومبيوتر" تكلفتها ٣٢٠ مليون دولار، " السوبر كومبيوتر " الجديد سيقل سعر

الشريحة *Microchip* التى تحتوى على مليار " ترانزستور " وهى الجزء الأساسى فيه ، عن ١٠٠ دولار.

هناك ما يسمى الآن الذاكرة " الهولوجرافية " *Holograghic Memory* الذاكرة ذات الأبعاد الثلاثة ، التى تستطيع أن تختزن المعلومات فى طبقات من الكريستال عن طريق تقاطع شعاعين من الليزر فى زوايا مختلفة ، ويمكن أن تحتوى ما يوازى ١٠ " جيجا بايت " فى حجم قطع السكر الصغيرة .

وهناك الآن مجموعة شركات تتعاون فى إنتاج " سوبر كومبيوتر " له قدرة على الفهم يسمى *C.Y.C* من " الانسيكولوبيديا " (دائرة المعارف) ويستطيع الإجابة عن أى سؤال إجابة مقنعة وعاقلة تدل على الفهم ، ويستطيع أن يستوعب المعلومات ، وأن يفهم ما يقال له ، وقد وصل الآن هذا " السوبر كمبيوتر " إلى القدرة العقلية لطفل فى السادسة أو السابعة ، كما أنه يستطيع أن يقرأ الصحف، وأن يرد على الأسئلة ، ويترجم من لغة إلى أخرى ، يتوقع " هانز مورافيك " *Hans Muravec* فى مؤسسة " كارنيجى ميلونز" *Carnegie Mellon's* للذكاء الصناعى أنه سيكون بالإمكان إنتاج " كومبيوتر " تفوق قدرته المعرفية والحسابية قدرة العقل البشرى حوالى ٢٠١٠ .

مثل هذه الآلات " العاقلة " ، وآلات الترجمة الفورية ، والإمكانات الهائلة للسوبر كمبيوتر ، وتقنية إنتاج صورة ثلاثية الأبعاد تضع أمام الناس احتمالات لم يسبق أن فكر فيها إنسان .

فمثلاً يستطيع رئيس مجلس الإدارة لإحدى المؤسسات متعددة الجنسيات يطير فى طائرته الخاصة التى تبلغ سرعتها ثلاثة أضعاف سرعة الصوت فوق المحيط الأطلنطى ، أن يعقد اجتماعاً لمجلس الإدارة فى الطائرة . . أعضاء المجلس من خمس قارات يتكلمون خمس أو ست لغات، ويلبسون ملابس مختلفة تتعلق بالزمان والمكان والظروف التى يوجدون فيها، ولكن " التكنولوجيا " والتقنيات الحديثة تجلسهم على مائدة الاجتماعات ، وتلبسهم ملابس رسمية ، يتناقشون فى جدول الأعمال، ويتكلمون كلهم الإنجليزية ، ولو أنهم أصلاً كانوا يتكلمون بلغاتهم الأصلية ، وبعضهم كان فى سريره ، والآخر على حمام السباحة فى ساعات مختلفة من الليل والنهار، ولكن " التكنولوجيا " المبهرة خلقت اجتماعا اعتبارياً لا يمكن أن تفرقه عن أى اجتماع عادى .

إننا أمام احتمالات هائلة ، فعلى سبيل المثال يمكن - من دراسة بعض أفلام التقطت من عشرات السنين لبعض مشاهير الممثلين والفنانين والشخصيات العامة - أن تُنتج أفلامٌ جديدة ، تقوم فيها هذه الشخصيات بأدوار لم يقوموا بها فى حياتهم ، بل ولم يتصوروا أنهم سيقومون بها يوماً من الأيام وتجرى مشاهد هذه الأفلام بسيناريوهات مختلفة ، تنطلق فى كافة الاحتمالات :- الإثارة – التسلية – الدعاية - تشويه السمعة - والقتل المعنوى - إلى غير ذلك بدقة متناهية .

قوانين الطبيعة " النيوتونية " *Newtonian Physics* تقول بأن هناك نوعين من الأنظمة : أنظمة ثابتة ، وأنظمة غير ثابتة أو فوضوية الأنظمة الثابتة أو الخطية أنظمة سهلة ؛ يسهل التعامل معها وسهلة الفهم إنها تتعلق بأمور يمكن التنبؤ بها ومعرفتها ، أما التعامل مع الأنظمة الفوضوية أو المعقدة فيكاد يكون من المستحيل مثلاً أن نتنبأ بمسار الماء فى مجرى ، أو جدول مائى أو مسار الدخان المتصاعد من مدخنه ، أو تطورات الأحوال الجوية فوق قارة من القارات .

وحتى وقت قريب كان من المفترض أن هذه الأنظمة المعقدة غير قابلة للفهم ، وغير خاضعة للتنبؤ، وكان هذا يعنى أن جوانب كثيرة من الحياة والأنظمة البيولوجية والاجتماعية والاقتصادية تظل مناطق مجهولة لا يمكن دراستها ، وغير قابلة للتقييم ، وكان هذا صحيحاً حينما كانت القدرة الحسابية للإنسان أو " الكومبيوتر" محدودة .

أما وأن التقدم فى القدرة الحسابية أصبح يتضاعف بطريقة لوغاريتمية أو أسِّية ، فانه من المتوقع أن كل مشكلة تتعلق بالطبيعة أو النشاط الانسانى أو الأنظمة المعقدة ، يمكن تحليلها ، ويمكن معرفة تتابعها أو مصيرها ، بداية من مسار عربة أو قطار ، أو سريان زيت فى أنبوبة ، أو تصرفات المواطنين فى معركة انتخابية ، أو طريقة عمل العقل البشرى .

كل هذا ممكن أن يدرس وأن يحلل ويتوقع علمياً ، وهذه ثورة هائلة .

يقـول " دويـن فـارمر " *Doyne Farmer* :- إن الإنسـان استطاع فى منتصف القرن الماضى أن يخترع القوة التى تستطيع أن تدمر الحياة على سطح الأرض ، وأنه فى منتصف القرن القادم سيكون فى إمكانه أن يكتشف ، ويخلّق أشكالاً جديدة من الحياة وأن هذا الاكتشاف قد يكون هو الأخطر على البشرية وأن حجم المسئولية التى يتحملها الإنسان بهذا الاكتشاف قد يكون أصعب ما واجهه فى تاريخه " .

كانت مشكلة البشرية حتى وقت قريب هى كيفية التعامل مع الأنظمة الخطية أو الطولية أو الثابتة *Linear Systems* ، وكان ممكناً فى إطار المعرفة الإنسانية السابقة أن نتوقع بثقة وبدقة كبيرة الأحداث المقبلة ، والتطورات القادمة ، وأن نكتشف لها الحلول المناسبة .

أما فيما يتعلق بالأنظمة المركبة أو الفوضوية ، فإنه إلى زمن قريب لم يكن هذا متاحاً ؛ لأن عدد العمليات الحسابية التى كان يتعين القيام بها كان فوق قدرة الانسان ، أو أى حاسب ، أما الآن فيمكن حساب ملايين العمليات الحسابية التى يتعين القيام بها فى ثوان معدودة .

وبذلك أصبح الانسان قادراً أن يتوقع ، وأن يكتشف ، وأن يستشرف الاحتمالات المختلفة فى عالم شديد التعقيد ، وفى أنظمة مركبة شديدة التشابك وأن يكتشف الحلول المناسبة للمشاكل القادمة ، والسيناريوهات المعقدة مستخدماً كل طاقاته .

الفصل الثانى

ثورة تكنولوجية هائلـــة

تلاحقت فى النصف الثانى من القرن العشرين اكتشافات تكنولوجية هائلة فى كافة مجالات الحياة ، توالت هذه الاكتشافات بسرعة مذهلة لم يسبق للإنسان أن تعرض لها من قبل .

تناقصت المدد البينية بين الاكتشافات نظرياً وتطبيقها عملياً وصناعياً ثم تسويقها تجارياً ، وبدلاً من عقود طويلة أصبحت المدد البينية سنين معدودة ثم شهوراً قليلة ، وأصبح الانسان محاطاً بقدر هائل من الاكتشافات التكنولوجية فى كافة مجالات الحياة ، وأصبحنا الآن نسمع عن الكيمياء الإحصائيـــة *Computational Chemistry* التى مزجت بين القدرات الهائلة " للسوبر كومبيوتر "وعلم الكيمياء "والتكنولوجيا " فائقـــة الصغر *Nano Technology* ، والذكاء الصناعى *Artificial Intelligence* ، وأصبح الآن يمكن أن نغـــذى "السوبر كومبيوتر " بمواصفات المادة التى نريد استعمالها فى مجال صناعى ، أو طبى ، أو أى مجال آخر ، ويعطينا " السوبر كومبيوتر " التركيبة الكيميائية للمادة المطلوبة ، ويتولى الذكاء الصناعى " والسوبر كومبيوتر " وضع البرنامج التنفيذى لإنتاجها ، وتتولى تقنية بالغة الدقة بآلات فائقة الصغر تجميع هذه المادة التى لم يسبق وجودها على ظهر الأرض من

جزيئاتها الأولى ، وتشكل فى منتجات ومصنوعات لا مثيل لها وانطبقت هذه " التكنولوجيا " أيضا على " البيولوجيا " وأصبح الآن ممكناً عن طريق " البيولوجيا " الإحصائيــة *Computational Biology* أن نشكل وأن نخلِّق أشكالاً جديدة للحياة .

والآن ولأول مرة استطاع علماء "البيولوجيا" أن يجمعوا ويلغوا ويقطعوا ويعيدوا تركيب وإيلاج ولزق وإعادة صياغة مواد جينية عبر الحدود "البيولوجية" للكائنات الحية: بين النبات والحيوان، والحيوان والإنسان، وعبر سلالات مختلفة ونوعيات متباينة من نفس النوع ، لتخليق أنواع جديدة من الكائنات لم يسبق وجودها من قبل على ظهر الأرض .

لقد استطاع العلماء مثلاً فى جامعة " بنسلفانيا " زرع " جينات هرمون النمو الإنسانى " فى الشفرة الجينية لأجنة الفئران ، ونمت الفئران إلى ضعف حجمها الطبيعى .

وفى تجربة أخرى استطاع العلماء زرع جين خاص بحشرة [يراعة *Firefly*]وهو المسئول عن توهج الحشرة، فى نبات الدخان،وبحيث اصبح هذا النبات يتوهج طوال الأربع والعشرين ساعة، واستطاع العلماء -عن طريق تقنية دمج الخلايا-أن يجمعوا خلايا معز وخلايا خراف وزرعوها فى رحم نعجة، ونتج عن ذلك حيوان جديد برأس عنز وجسد خروف .

واستطاع الانسان أن يخترق الحاجز البيولوجي والجيني بين النبات والبكتريا ، والحيوان والإنسان ، واستطاع أن يزرع جينات معينة في ميكروبيات معينة، واستطعنا دخول آفاق جديدة في الهندسة الوراثية "والبيولوجيا" الحيوية، ونقل جينات من مكان إلى مكان، وزرعها معملياً، وإحلال الجينات السليمة محل الجينات التالفة واستطعنا أن نجد علاجات جديدة لأمراض الوراثة والأمراض المعدية والأمراض المستعصية، وحلولاً لمشاكل كان يستحيل الوصول إليها إلى وقت قريب، واستطعنا-بطريق العلاج بالجينات-تحقيق تقدم هائل في الطب واكتشف العلماء " الجينات " الخاصة بأمراض مختلفة ، وفي إطار مشروع هائل للخريطة " الجينية " للإنسان *Human Genome project* والذي يتكلف ثلاثة بلايين من الدولارات ، وتشارك فيه ١٩ دولة ينتظر أن يكتمل في ٢٠٠٢ توصل العلماء إلى اكتشاف " الجين " الخاص بالصرع ومرض السكر والسمنة ومرض الزهايمر، " والجين " الخاص بإطالة العمر وبدأت الشركات في تسجيل هذه " الجينات " في إطار الملكية الفكرية، واستطاع العلماء – في حالات كثيرة – إحلال الجينات السليمة محل الجينات التالفة مما مكنهم من تحقيق الشفاء الكامل للمرض .

" آفاق رحبة وإمكانات هائلة وفي الوقت نفسه احتمالات رهيبة" فلنفرض مثلاً أنه أمكن تعميم " الجين " الخاص باطالة العمر على كل البشر وتضاعفت متوسطات الأعمار إلى ١٢٠أو١٥٠ سنة ، ولكن في إطار هذا ظهر أن " الجين " المستبدل قد فقد – بعد استبداله – خاصية حماية

الانسان من خطر " فيروس " جديد ، أو "فيروس" قد يكتسب فى المستقبل ضراوة شديدة، ويفتك بالجنس البشرى ، وبذلك يفنى الانسان، وليس هذا مستغرباً؛ فلقد ثبت أن بعض " الجينات " المريضة مثل " الأنيميا المنجلية" *Sickle Cell Anemia* تحمى الانسان من مرض الملاريا ، وقد يحمل "الجين" أكثر من وظيفة . وقد تكون بعض هذه الوظائف غير معروفة الآن ولا نتبين أهميتها أو خطورتها إلا بعد استبدالها .

لقد استطاعت " التكنولوجيات " الجديدة أن تعطى الانسان إمكانات وقدرة هائلة فى التشخيص والعلاج ، واستطعنا بآلات فائقة الصغر أن ندخل تجويفات داخل جسم الانسان .. داخل الشرايين .. داخل القنوات المرارية والبولية .. وأن نجرى جراحات دقيقة ، وأيضاً نجرى عمليات خطيرة بالإنسان الآلى ، واستطعنا أن نصلح وأن نستبدل الصمامات القلبية التالفة ، وأن نزيل جلطات قاتلة ، وأن نعيد سريان الدم إلى مناطق توقفت فيها الدورة الدموية ، واستطعنا أن نستبدل أو نزرع عدداً كبيراً من الأعضاء : الكلى - والكبد - والقلب - والعظام - والجلد - والعضلات - والأعصاب - وأنقذ هذا آلاف المرضى وأطال عمرهم عشرات السنين ، ولكن فى نفس الوقت كان للتكنولوجيا مضاعفاتها سواء فى التشخيص أو العلاج .

لقد ثبت فعلاً فى أمريكا سنة ١٩٨٧ أن ١٠٠٫٠٠٠ أمريكى أجريت لهم جراحات خطيرة لإزالة جلطات ، وكان خطر هذه العمليات على من

أجروها أكثر بكثير من أخطار الإصابة بالجلطة ذاتها ، وثبت من تقرير لجنة التحقيق الذى أجراه الكونجرس عام ١٩٧٤ أن ٢,٤ مليون أمريكى أجروا عمليات لا لزوم لها كان من نتيجتها وفاة ١١,٩٠٠ مريض ، وكلفت هذه العمليات التى لا لزوم لها الدولة ٣,٩ من بلايين الدولارات .

كما فتحت عمليات زراعة ونقل الأعضاء احتمالات رهيبة لتجارة الأعضاء - عصابات دولية منظمة تخطف البشر رجالاً ونساء وأطفالاً وتستعملهم كقطع غيار لمن يملك الثمن ، تعطيهم حياة أخرى وعمراً آخر، على حساب أبرياء تزهق أرواحهم أو تنتزع أعضاؤهم لمن لديه السطوة أو المال .

وبدلاً من أن تكون هناك بنوك للأعضاء تخدم البشرية ، وتعمل فى إطار قانونى واخلاقى ، أصبحت هناك سوق سوداء لا ترعى حرمة ولا تراعى ضميراً .

استطاع الانسان أن يكتشف ما يمكن أن يكون عقارا جديداً لإطالة العمر ولعلاج رعب العصر : " السرطان " - اكتشف العلماء أن "الكروموزومات " الحاملة " للجينات " يوجد فى نهاية أذرعها شريحة صغيرة تسمى " التيلومير " *Telomere* وأن انقسام الخلية يسبب تناقص طول هذه الشريحة تدريجياً ، وبعد عشرات الانقسامات تكاد هذه الشريحة أن تختفى ، وهنا ينتهى عمر الخلية الحاملة " للكروموسومات " ؛ ولذا سميت هذه الشريحة بساعة الحياة للخلية *Cell Clock* وقد لوحظ أن الخلايا السرطانية لاينقص فيها طول " التيلومير " مهما تعددت مرات

انقسام الخليـة ، وان ذلك يرجع إلى وجـود أنزيـم يسـمى " تيلومـيريز " *Telomerase* فى الخلايا السرطانية .

وهنا بدأ العلماء فى دخول مجال استعمال علاج " التيلوميريز " : إما عن طريق عقار يحث " الجينات " التى تنتج " التيلوميريز " فى الخلايا على زيادة إنتاجه ، أو إعطاء عقارات تعارض تأثير مهبطات " التيلوميريز " أو حقن " التيلوميريز " أو شبيه " للتيلوميريز " يتمتع بخاصية مقاومة تمثيله أو التخلص منه فى الجسم أو الدم ، وكل ذلك يؤدى إلى إطالة عمر الخلايا والإنسان ، وإعادة ملء ساعة الحياة فى الخلايا .

من ناحية أخرى يتم استعمال مضادات " التيلوميريز " لوقف نمو الخلايا السرطانية ، والقضاء عليها ، إن آفاق هذا الاكتشاف لانهاية لها ، ونتائجها الإيجابية هى مزيد من العطاء الانسانى وتعمير الكون ، واستمرار عمل الموهوبين والنوابغ والرموز الوطنية والأبطال ، وبما يحمله ذلك من إمكانات للخير .

وفى المقابل ما يمكن أن يترتب على هذه الاكتشافات من نتائج سلبية وأخطار تتربص بالإنسانية كلها إذا ما أسىء استعمالها .

وفى مجال الطبيعة تمت اكتشافات هائلة :-كيمياء "الفيمتوثانية" للعالم أحمد زويل ، والطاقة المتجددة ، وطاقة الرياح وطاقة الفراغ-لقد قال عالم الطبيعة الشهير "دافيد بوم" *David Bohm*:

إنه يوجد مقدار من الطاقة فى سم^{3} مكعب واحد من الفضاء أكثر من أى مادة أخرى فى الكون وأن هذه الطاقة : " طاقة درجة الصفر " .. " طاقة الفراغ *Zero point energy* " واعدة ومن المقدر أنه فى حوالى ٢٠١٢ ستكون " تكنولوجيا " الحصول على طاقة الفراغ هى أكثر التقنيات من حيث الجدوى الاقتصادية .

وفى مجال اكتشاف المواد فائقة التوصيل ***Super conductors*** فإن التقدم فى البحث أوشك على الوصول إلى مواد " سيراميكية فائقة التوصيل فى درجة الحرارة العادية " بما يحمل ذلك من خفض هائل فى سعر الطاقة الكهربائية، واستعمال أفضل للكهرباء فى الأجهزة الكهربائية والكمبيوتر، وفى إنتاج مغناطيسات هائلة القدرة تستطيع رفع قطار من على مساره على القضبان فى مجال مغناطيسى مما يسمح للقطار بالوصول إلى سرعة ٣٥٠ ميلاً فى الساعة أو أكثر.

فى مجال استخراج الذهب (الذى لازال يشكل احتياطياً استراتيجياً فى سوق المال) فإنه حتى ١٩٥٠ كان لابد من توافر - ١/٢ - أوقية على الأقل فى كل طن من الخام ليصبح الاستخراج ذا جدوى اقتصادية ، واليوم أصبح ممكناً استخراج الذهب من - ١/٢٠ - من التركيز السابق ، بل إن العلماء توصلوا إلى اكتشاف بكتريا معينة تستطيع أن تلتهم الكبريت والحديد من خام (البيريت) *Pyrite* مثل ما يفعل النمل الأبيض *Termites* ، وتترك بعد ذلك خلاصة مركزة من تراب الذهب الخالص .

كل هذا يفتح مجالات هائلة فى كافة مجالات الحياة ، ويشكل إمكانات هائلة قادرة على أن تمنح الانسان تسهيلات عظيمة فى الحياة وأن توفر الوقت ، وأن تتغلب على مشاكل يومية كانت تستهلك جهد ووقت الانسان .

كان الهدف الأساسى من هذه "التكنولوجيا" هو توفير الوقت وتيسير الحياة للإنسان ، كانت فى الأصل أداة ووسيلة وخادماً للإنسان ، إلا إنها فى كثير من الأحيان وفى عدد من البلدان تحولت إلى مارد انطلق من عقاله ، وتحول إلى سيد يتحكم فى الإنسان ويلتهم وقته وتركيزه ، ويجور على حقه فى الحياة فى جوهرها الحقيقى الانسانى .

انقلبت الآية .. تحولت الأداة إلى هدف ، وتحول الخادم إلى سيد متسلط وفقد الإنسان القدرة على التأمل، وعلى أن يخلو إلى نفسه وافتقد القدرة على تذوق الجمال ، وعلى الإحساس بالأشياء الصغيرة فى الحياة : تفتح زهرة – لون الشفق – قطرات الندى على أوراق الأشجار – رائحة النباتات – تغريد بلبل – ابتسامة طفل صغير.

هذه الاكتشافات الهائلة فى مختلف مجالات الحياة – فى الكيمياء – فى الطبيعة – فى المواد الحديثة – [الرياضيات – السوبر كومبيوتر – الموصلات فائقة التوصيل] كل منها يشكل فتحاً جديداً ، وإمكانات هائلة وطاقة غير محدودة للتقدم وللتجديد .

ولكن تفاعل هذه " التكنولوجيات " مع بعضها البعض فى مختلف العلوم والمجالات ، يطلق طاقات هائلة تشبه التفاعلات الكيميائية ، تفوق

فى أهميتها ومقدارها العناصر التى دخلت فى التفاعل ، أى أنها ليست حاصل جمع لقدرات " التكنولوجيات " المتفاعلة ، بل هى أقرب إلى حاصل ضرب ، أو أس لمدخلات التفاعل ، وفى إطار " دمج التكنولوجيات " المختلفة ، وفى إطار اختراق الحاجز " البيولوجى " أو " الجينى " بين المخلوقات وبعضها ، يشكل كل ذلك إمكانات واعدة ، ويفتح أمام البشرية آفاقاً هائلة ، لو أمكن استغلالها لصالح الإنسان وتيسير حياته ، وحل مشكلاته ، كما يمكن أن تكون كذلك بداية التدمير للإنسان ، وللحياة البشرية .

"التكنولوجيا" ليست خيراً خالصاً باستمرار، وليست شراً مستطيراً على طول الخط، وإنما يتوقف ذلك على الانسان .. صانع هذه " التكنولوجيا " ومكتشفها ومستخدمها .. فهى فى النهاية أداة ، ولكن إن تحولت إلى سيد أو ديكتاتور وإذا سيطرت " التكنولوجيا " على الانسان ، فان ذلك يشكل خطراً مستطيراً عليه وعلى حياته .

لقد بدأنا فى جنى ثمار بعض هذه الآثار الجانبية فى بعض الدول المتقدمة وهى الظاهرة المعروفة " بالتكنوبولى " *Technopoly* (سيطرة " التكنولوجيا " على الثقافة والحضارة) وما ترتب عليها من موجات مؤسفة من الانحلال الخلقى، والتفكك الأسرى، وتفشى الإدمان والمخدرات ، وسيادة العنف والجريمة ، وزيادة معدلات الانتحار، لقد أدت "التكنولوجيا" إلى تفكك النسيج الاجتماعى ، كما بنيت " ألتكنولوجيات "

على أشلاء السلام الاجتماعى ، وتحولت من أداة ووسيلة إلى غاية ، ومن جهاز أو آلة إلى وحش .

ومن ابرز العواقب الوخيمة التى برزت فى إطار صناعة البرمجيات والوسائط المتعددة وهو ما يطلق عليه ظاهرة " نينتندو الحربية المركبة " *Nintendo Military Complex* (وهى مجموعة من لعب الكمبيوتر الحربية للأطفال كانت أصلاً تستعمل لأغراض عسكرية) .. بدأت صناعة البرمجيات تنتج ألعاباً ترفيهية للصغار والكبار ترسخ وتمجد العنف بكل أشكاله : - المعارك الحربية بما فيها من تدمير وتخريب وقتل وإبادة - وبدأت ظاهرة جديدة ليست فقط فى زوال الحاجز بين الحقيقة والخيال وبين الوهم والواقع ، بل وأيضاً نتج عنها كثير من الاضطرابات العصبية والنفسية ، وعدم القدرة على التركيز: (مرض نقص القدرة على الانتباه) ***Attention Deficit Disorder*** فضلا عن الاختلال فى طرق تعبير الانسان عن رغباته ، وفى حركاته وبما يؤدى إلى إيذاء نفسه نتيجة اختلاط الأمور عليه ، كما لوحظ أن هناك ظاهرة دوار الحقيقة الاعتبارية *(Cybersickness)* وهى شبيهة بدوار البحر.

وتقليل الحساسية عند الانسان ضد العنف والقسوة هو موقف مشابه للذى يتناول كميات صغيرة من السم بجرعات متزايدة تدريجياً فيصبح فى النهاية عنده مناعة ضد هذا السم .

ويفقدان الانسان لحساسيته ولمشاعره الإنسانية يصبح معتادا على العنف والقسوة ، غير مبال بتألم إنسان آخر، أو إيذائه ، وتصبح القسوة شيئاً طبيعياً والعنف ظاهرة عادية ، ويفتقد الانسان المشاعر الإنسانية السوية التى تستنكر وترفض القسوة والإيذاء والإيلام .

وبدأت تتوالى حوادث مؤسفة لعل أبرزها حادث قيام اثنين من الصبية بعملية قتل جماعية فى مدرسة فى أمريكا لزملائهم ومدرسيهم كان هؤلاء الغلمان قد اعتادوا على مشاهدة ألعاب وبرامج إلكترونية لا تختلف كثيراً عن المشهد الذى قاموا بتمثيله على مسرح الحياة ، وكأنهم مستمرون فى ممارسته على أزرار "الكمبيوتر"، ومشاهدة آثاره على شاشة الجهاز واستعاروا أسماء الأبطال الوهميين ، واختلط الخيال بالواقع ، والحقيقة الاعتبارية بالمأساة الحقيقية . لقد رأى الصبية المشاهد نفسها على شاشة الكمبيوتر فى برامج إلكترونية بل وقاموا بإنتاج أشرطة فيديو "لسيناريوهات مماثلة " قبل أن يقوموا بجريمتهم فلم يهتز لهم جفن ، ولم تطرف لهم عين ، فقد أصيبوا عملياً بمرض فقدان المناعة ضد العنف (*Acquired Violence Immune Deficiency*).

لقد أصبحت صناعة هذه البرامج الإلكترونية التى تمجد العنف ، بنية أساسية لثقافة العنف ، تمهد الطريق لعالم مروع قائم على الفتك والدمار والقسوة والقتل ، ويبلغ حجم هذه الصناعة فى أمريكا وحدها ١٦ مليار دولار وهى فى زيادة مضطردة برغم صيحات التحذير التى أطلقها العقلاء

والمفكرون ، ولكن آليات السوق واعتبارات المكسب تغلبت على الاعتبارات الأخلاقية والمصالح المستقبلية .

لقد ذهبت كلمات المفكرين والمصلحين بل والرئيس كلينتون نفسه سنة ١٩٩٨ أدراج الرياح ، لقد بدأنا نسمع عن المجتمع المتسمم " تكنولوجياً " كما بدأ الكثير من المفكرين يكتب ويتكلم عن الشعب الذى تسمم " تكنولوجياً " والذى بدأ يعانى من أعراض هذا التسمم .

ومن أعراض هذه الظاهرة زوال الحاجز بين الوهم والحقيقة ، واعتياد الإنسان على مظاهر العنف والقسوة ، فضلا عن انبهار الناس بهذه "التكنولوجيا" وانقيادهم الأعمى إلى الاعتماد الكلى عليها .. واعتمادهم على الحلول السهلة : [الوجبات الجاهزة - المغسلة الأوتوماتيكية - الإنسان الآلى الذى يقوم بالتنظيف] . وتشكل ظاهرة الاعتماد على "التكنولوجيا" خطراً على سلوك البشر ، وتقلل من اعتمادهم على الذات ، وتغريهم بالحلول السهلة ، فضلاً عن افتقارهم إلى الأمن . . . الخ ، بالإضافة إلى الشك الدائم فى المستقبل ، وتوقعهم المستمر لإمكان حدوث كارثة نتيجة خطأ ما : - انطلاق صاروخ - أو قنبلة نووية - نتيجة انفلات هذه " التكنولوجيا " .

أصبح الإنسان يمضى معظم وقته فى استعمال هذه " التكنولوجيا " أو الترتيب لها ، أو علاج آثارها ، أصبح جزء كبير من الشعب الأمريكى حوالى ٨٠٪ يتناول وجباته المعدة من قبل إما فى سياراتهم ، أو فى محلات

Take Away ، أو نزولاً على عجل على سلالم منـازلهم ، أو صعـودا على سلالم مكاتبهم .

لقد أصبحت المجتمعات عرضة لضغط عصبى شديد ، سببته "التكنولوجيا " كما تعرض الانسان لانتهاك خصوصيته ، وفقدان إحساسه بالسكينة والأمان ، بل أن أفراد العائلة الذين يعيشون فى مكان واحد ، أصبحوا أغراباً كل منهم مشغول فى آلته أو الجهاز الذى يعمل عليه أو يتسلى به .

إن التقدم المذهل الذى حدث فى مجال الهندسة الوراثية "والتكنولوجيا " الحيوية ، والعلاج بالجينات ونقل وزراعة الأعضاء ، أصبح الآن مجالاً ليس فقط لاحتكارات تجارية يمكن أن تثرى على حساب آلام البشر وأمراضهم وحياتهم كما ذكرنا من قبل ، بل إلى نشأة عصابات منظمة تتعامل فى هذا المجال بمنطق الجريمة ويصير الإنسان وأعضاؤه مجرد سلع تباع وتشترى وتجارة يمكن أن تكون مصدراً لأموال طائلة لا يهم أن يختطف الأب أو الأم أو الطفل أو لتنتزع أعضاؤه أو ليقتل فى بعض الأحيان ، ولكن المهم هو ما يساوى هذا الإنسان أو عضو من أعضائه فى بورصة هذه التجارة السوداء ، وما يمكن أن تحققه من ربح فى هذه السوق السوداء التى لا مكان فيها لخلق أو ضمير.

إن التقدم المذهل فى كثير من المجالات خصوصاً فيما يتعلق بالطاقة: [الطاقة النووية - الليزر -] بالإضافة إلى الهندسة الوراثية

يفتح الباب على مصراعيه لإنتاج أسلحة ووسائل للدمار الشامل ليست فقط فى متناول الحكومات أو الدول العظمى ، وإنما أيضاً فى يد الأفراد أو الأقليات أو الجماعات المتطرفة . وهنا يبرز السؤال : هل يمكن فى ظل مظاهر الظلم الاجتماعى والتطهير العرقى والاحتلال الظالم لأراضى الدول الأخرى ومظاهر الظلم الفاحشة ، هل يمكن أن يأمن الجنس البشرى على مستقبله حينما تتوافر وسائل الدمار الشامل فى يد قلة أو أفراد شعروا بالظلم والاضطهاد والتهميش وأحسوا بالقسوة أو الهوان ؟ أحسوا بغربة مكانية موحشة ، ووقعوا فى براثن يأس مطبق ، فهدموا المعبد على أنفسهم وغيرهم ، دمروا الحياة التى أحسوا أنها قست عليهم ، أو أنها قد ضاقت بهم ؟ سؤال يحسن أن نفكر فيه قبل أن تفاجئنا إجابته الصاعقة .

ثم تأتى اعتبارات البيئة وما تتعرض له من مخاطر فى إطار هذه القدرة " التكنولوجية " الهائلة ، فبجانب الخير الكثير الذى يمكن أن تأتى به هذه " التكنولوجيا " الجديدة ، فإن هناك مظاهر مؤلمة لحالات من تدهور البيئة وتلوثها فى كثير من الأماكن :- التآكل المستمر لمعظم غابات العالم التى تشكل الرئة التى يتنفس بها الإنسان ومستودعاً "استراتيجياً " للتنوع " البيولوجى " اللازم لاستمرار الحياة — إلى جانب تلوث متزايد لمصادر المياه — وتدهور مستمر للتربة — وتآكل متزايد لطبقة الأوزون — واختلال خطير فى الغلاف الجوى المحيط بالأرض بما تتضمنه من أخطار عاجلة تهدد صحة الإنسان فى القريب العاجل — أو أخطار آجلة تهدد التنوع " البيولوجى " والقاعدة الجينية للإنسان واستمرار استقرار الحياة .

وذلك كله يجرى فى إطار تزايد مستمر لاكتشاف واستعمال "تكنولوجيات" جديدة تُصنع فقط فى حدود آليات السوق ، وأهداف تحقيق أقصى عائد من الريح بصرف النظر عن الاعتبارات البيئية وما يمكن أن تسببه من عمليات تدهور مستمر للوضع البيئى والتنوع " البيولوجى " اللازم لاستمرار الحياة .

الفصل الثالث

آثار الثورة «التكنولوجية» والمعلوماتية على الاقتصاد

كان لكل هذه التطورات الهائلة فى المعلومات " والتكنولوجيا " آثار خطيرة على الاقتصاد المحلى والدولى : - الهياكل الاقتصادية - عوامل الإنتاج - القيمة المضافة النسبية - الإنتاجية - السوق - المجتمع والمستهلك - النظم والهياكل والمؤسسات والعلاقات والآليات .

إذا كانت الثورة الصناعية قد أدت إلى نمو الصناعة بشكل لم يسبق له مثيل ، وظهر :- الإنتاج كثيف العمالة - الإنتاج كثيف الإنتاجية - إنتاج الوفرة *Mass Production* - إنتاج السلع والآلات بشكل لم يسبق له مثيل – لكن ظلت المحاور أو العوامل الأساسية للإنتاج لم تتغير بشكل جذرى ، ظلت العوامل الأساسية :- رأس المال – اليد العاملة – المواد الخام والأرض – كما هى بتغيرات كمية ونوعية لا شك فيها ، ولكنها ليست مختلفة جذريا عما كانت عليه فى عصر الثورة الزراعية ، فهذه العوامل تأثرت بطريقة كمية وبشكل يمكن حسابه ، فالإنتاج فى إطار الثورة الزراعية كان إنتاجاً استخراجياً *Extractive Production* :- استخراج المعادن - الحديد – النحاس - والذهب من باطن الأرض– جمع المحاصيل من المزارع– العمالة كانت أساسية للغاية والمواد الخام كانت مهمة ، والأرض كانت محورية ، وكانت هى مصادر الثروة الاقتصادية .

أما فى إطار الموجة الثالثة فإن هذه العوامل قد تغيرت بشكل فجائى وبشكل جذرى ، انتقلنا من إنتاج كثيف العمالة ، إلى إنتاج كثيف المعرفة .. انتقلنا من إنتاج الوفرة إلى إنتاج السرعة .. انتقلنا من إنتاج السلع والآلات إلى إنتاج خدمات وبرامج وأفكار.. وأصبحت السمة المميزة للإنتاج أنها تعتمد على " تكنولوجيا " قوة العقل *Brainpower Technology* ، وانتقلنا من الإنتاج النمطى إلى إنتاج مفصل *Tailored Production* ، حلت المعرفة محل رأس المال ، حل الإنترنت *Internet* محل الكمبيوتر، أصبح المحرك الأساسى للإنتاج هو: المستهلك وليس المنتج ، كما يحدث انتقال لمركز الثقل فى الإنتاخ من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى .

لم يقتصر هذا التغير الثورى على العوامل الأساسية بل تعداه إلى التفاصيل وأصبح الإنتاج بدلاً من أن يكون إنتاجاً ميكانيكياً أو طولياً أو خطياً *Linear Systems* فى إطار نظام ثابت ، أصبح الإنتاج مركباً وشبكياً ومعقداً ومتصلاً ومتغيراً بسرعة كبيرة وعلى فترات قصيرة مواكبة لتغير أذواق المستهلكين ومتطلباتهم المتطورة . أصبحت هناك ضرورة ملحة.. أن تتصل خطوط الإنتاج مباشرةً بأسواق المستهلكين عن طريق الاتصال فائق السرعة وبما يفرضه ذلك من مرونة هائلة على خطوط الإنتاج التى يجب أن تتشكل وتتغير باستمرار بطريقة فجائية وسريعة ومتلاحقة وبطريقة جذرية . . أصبحت الميزة الحدية ليست فى اكتشاف منتج جديد ، ولكن أهم من ذلك بكثير اكتشاف طرق تطبيق مبتكرة أو عمليات تنفيذ الاكتشاف بطريقة أفضل وبتكلفة أقل

ويسرعة أكبر، والذى يستطيع ذلك فإنه عملياً يستولى على عائد الاكتشاف من المخترع ذاته .

وإلى جانب ذلك كله أصبحت الاعتبارات البيئية التى فرضها المستهلك وجماعات ضغط غير حكومية فى بلدان كثيرة تلعب دوراً كبيراً كمحدد للقيمة المضافة للمنتج وربحيته، بجانب مكون المعرفة فيه .

كان للموجة الثالثة أيضا تأثير كبير على الشكل المؤسسى نفسه فبدأت عمليات إعادة الهيكلة - أو إعادة الهندسة المؤسسية أو تقليل حجم العمالة أو ما يسمى بالإنتاج الرشيق *Lean Production* - وتغيرت العلاقات الإنتاجية من علاقة مستديمة للعامل والموظف ، بفرص عمل دائمة يجد فيها الاستقرار والأمان ، إلى علاقة متغيرة لا يوجد فيها ضمان لاستمرار العمل . . فالضمان الوحيد والممكن هو قابليته للتوظف فى مكان آخر *Employability* ، أو إنتاج مختلف مادام يمتلك الخبرات والقدرات بديلاً عن وظيفة مستديمة *Life Long Employment* .

على أن طبيعة العمل نفسها أصبحت قابلة للتغيير. فبدلاً من مهنة واحدة وتخصص دقيق لا يتغير فى إطار الحياة الوظيفية أو العملية للإنسان، فإنه - فى إطار الموجة الثالثة - اصبح الاحتمال الأرجح هو أن يغير الإنسان مهنته أو تخصصه مرتين أو ثلاثا أو خمس مرات ولابد أن يكون على استعداد دائم للانتقال والتكيف والتغير، وإعداد نفسه لمخاطر عدم الاستقرار، وبما يقتضى أن يسلح نفسه بقاعدة عريضة من

الخبرات والقدرات تمكنه عند الضرورة ، من الانتقال السلس والآمن إلى فرصة أخرى وعمل آخر.

كان تأثير التغيرات السابقة من إعادة الهيكلة والميكنة ودخول "الكمبيوتر" "والسوبر كمبيوتر" والإنسان الآلى هائلاً على فرص العمل المتاحة حيث تزايدت معدلات البطالة فى معظم الدول المتقدمة ولم تقل معدلات البطالة عن عدد من رقمين فى أى دولة أوربية فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات ، كما كان لهذا أثر كبير على طبيعة العلاقات بين الفرد والمؤسسة فبدلاً من قيمة الولاء للمؤسسة أو الشركة أو المصنع ، فإن العلاقة أصبحت علاقة عارضة ، تعتمد على تغير اعتبارات الربح ، وما تتطلبه من إعادة هيكلة المؤسسة .

كان من المأمول أن تنجح الثورة التكنولوجية والمعلوماتية فى استحداث صناعات وخطوط إنتاج جديدة فرعية تتطلبها الصناعات الجديدة المتنوعة مثل :- البرمجيات - ومؤسسات التسويق - والترفيه - والخدمات . ولكن هذه الآمال لم تتبلور على النحو المطلوب فى كثير من الأحيان ، كما كان لهذه التغيرات أثر كبير على مستوى التعليم المطلوب ، فإذا كان الإنتاج إنتاجاً كثيف المعرفة ، والصناعة صناعة تعتمد على قدرة العقل والمجالات الواعدة وهى : الإلكترونيات الدقيقة *Microelectronics* ، صناعة الفضاء والطيران وصناعة وسائل الاتصال *Telecommunication* والمواد الجديدة " والتكنولوجيا " الحيوية *Biotechnology* والكمبيوتر والبرمجيات ، والإنسان الآلى ، والتعلم عن بعد وكلها تعتمد أساساً على

المكون المعرفى فى كل منها عندئذٍ تصبح المعرفة هى العامل المحدد والمؤثر فى تحديد القيمة المضافة النسبية ، وذلك يقتضى مستوى معرفياً وقدرات متميزة تحتاج إلى تعليم عالى المستوى رفيع النوعية كما أن التغير الذى حدث مع الموجة الثالثة فى تحديد الميزة التنافسية كان عاملاً أساسياً يتطلب تعليماً مختلفاً .

إن العامل المرجح الآن ليس فقط فى اكتشاف منتج جديد ، أو مجرد التوصل إلى " تكنولوجيا " جديدة ، بل أصبحت الميزة التنافسية هى القدرة على التوصل إلى طرق مبتكرة ، وإلى الآليات المتميزة لإنتاج الاكتشاف وذلك أيضاً يقتضى أ ن يكون على خطوط الإنتاج كوادر قادرة على استعمال الرياضيات المعقدة ، وإجادة اللغات ، والكفاءة فى استعمال "الكومبيوتر" والقدرة على اتخاذ القرار ، والمقدرة على الحكم على جودة الإنتاج على خط الإنتاج ذاته دون الرجوع إلى جهة مركزية ، كما أن طبيعة الوظائف المطلوبة فى الألفية الثالثة يشكل فيها ما يسمى المحلل الاعتبارى " *Symbolic Analyst* " نسبة كبيرة من الوظائف المتاحة وهى تشمل محددى المشاكل ، ومحللى المشاكل ، والوسيط الاستراتيجى ، وتشكل هذه الوظائف من ٢٠٪ إلى ٣٠٪ من الوظائف المتاحة ، وتتطلب قاعدة عريضة من الخبرات ومستوى معرفى مرتفع ، وقدرة على التحليل النفسى ، وقدرات اتصال متميزة، إلى جانب خلفية قانونية ، وقاعدة خبرات اجتماعية عالية وكل هذا يتطلب مستوى مرتفعاً ومتميزاً من التعليم .

ويرى الكثيرون أن الحد الأدنى للتعليم هو ١٢ سنة من التعليم الأساسى بالإضافة إلى سنوات من التدريب الفعال ، والاتجاه الغالب الآن هو أن الحد الأدنى المطلوب هو التعليم الجامعى الذى يجب أن يتبعه تدريب مستمر مدى الحياة . ولم يعد مقبولاً أو كافياً أن تكون هناك قلة متميزة معقود عليها الآمال ، ذلك أن كل مجالات الإنتاج والخدمات الاجتماعية أصبحت فى أشد الحاجة إلى كوادر على مستوى تعليم متميز.

التغيير الذى حدث فى إطار الموجه الثالثة ليس فقط فى علاقات الإنتاج ولا طبيعة المنتج أو فرص العمالة أو التخصصات المطلوبة أو الشكل المؤسسى أو التغير فى عوامل القيمة المضافة للمنتج ، بل امتدت أيضاً إلى إطار الملكية وبلد المنشأ ، فإن الإنتاج فى إطار الثورة الصناعية ينسب إلى دولة معينة أو إلى شركة ذات صفة محددة ، أما الآن فإنه يصعب تحديد جنسية أو طبيعة منشأ أى منتج ، وذلك أن المنتج : كسيارة مثلاً يمكن أن يكون الصلب المستعمل فيها أمريكياً ، والموتور والأجزاء يابانية ، وفرش السيارة ألمانياً ، والتصميم سويسرياً ، وعملية التسويق إنجليزية .

وأصبحت كلمة الصناعة الوطنية أو الأجنبية خادعة أو غير حقيقية على أقل تقدير ، ومع تزايد التجارة العالمية ، وقواعد الجات ، قلت أهمية هذه الاعتبارات ، وأصبحت غير ذات دلالة أو جدوى ، وتغيرت علاقات التسويق والتجارة ، وبدلاً من التجارة المحلية والتجارة الثنائية بين دول مختلفة أصبحت التجارة عالمية ، وبدلاً من المعاملات التجارية النقدية

أصبحت المعاملات " إلكترونية " ، وأصبحت التجارة " إلكترونية "، وأصبح حجم المعاملات " الإلكترونية " فى اليوم الواحد يزيد عن ترليون دولار يومياً، بهذه الاكتشافات الهائلة انقلبت كل الموازين والقواعد الكلاسيكية .

ولم تقتصر التغيرات على العوامل السابقة فقط بل امتدت إلى مفهوم الميزة النسبية، فالميزة النسبية لم تعد كما كانت من قبل لقد كانت فى مرحلة ما وفرة الأراضى . . وفرة الأيدى العاملة ، والآن لم تعد تشكل هذه الأهمية أصبحنا نسمع عن زراعة بل مزارع وبلا زراع ، كما يتم إنتاج بعض منتجات الحاصلات الزراعية " كالفانيليا والثوماتين " (بديل السكر) معملياً فى أحواض " بكتيرية " عن طريق تقنية فصل " الجينات " .

ويتقدم التنمية الرأسية للزراعة ودخول الهندسة الوراثية "والبيولوجيا " فى الزراعة ، أصبحت الميزة النسبية للمعرفة ، وليست للأرض وتضاعفت كمية المحاصيل الزراعية " بالبيولوجيا " الحيوية .

وفى الصناعة أيضا لم تعد وفرة اليد العاملة توفر ميزة نسبية : فنحن الآن فى عهد تتم فيه الصناعة بلا صناع بل بالإنسان الآلى وبالتحكم عن بعد وبالتصميم عن طريق " الكومبيوتر" والإنتاج بمساعدة " الكمبيوتر" *Computer Aided Manufacture C.A.M &*
Computer Aided Design C.A.D

وأصبحت الميزة النسبية هى " التكنولوجيا " الجديدة والمعرفة، ولعل سباق صناعة السيارات بين اليابان وأمريكا وأوروبا وكيف حسمته اليابان

لصالحها باستعمالها الإنسان الآلى درس لمن كانوا يتكلمون عن الإنتاج كثيف العمالة باستعمال " تكنولوجيات " متدنية أو متواضعة ، أصبحت وفرة اليد العاملة مع " تكنولوجية " بدائية أو غير متقدمة رهاناً خاسراً أمام " التكنولوجيا " المتقدمة والعمالة المحدودة .

لم تعد اليد العاملة ميزة نسبية الآن، والميزة النسبية كان يمكن أن تكون إلى عهد قريب فى الإنتاج فى بلد عبر البحار *Overseas or Offshore Production* ولكنها لم تعد الآن ميزة تنافسية ؛ إذ أن مكون الأجور فى عملية الإنتاج أصبح لا يتجاوز ١٥٪ من تكلفة المنتج بينما تتكلف نفقات الشحن والنقل والتأمين من ٥ – ٧,٥ ٪ وهذا يعنى إنه لابد أن يكون هناك فرق فى مستوى الأجور ٥٠٪ على الأقل حتى يكون الإنتاج خارج البلاد ذا جدوى اقتصادية ، وهو أمر يكاد أن يكون مستحيلاً الآن .

لم يعد المناخ ولا طبيعة الأرض ولا طول النهار أو الليل ذا أثر فى عملية الإنتاج فى ظل الموجة الثالثة؛ فالإنتاج ليس مرتبطاً بالمناخ ولا بالليل أو النهار؛ إذ أنه مرتبط بزمن إلكترونى لا ارتباط بينه وبين الليل والنهار كما أن الإنسان الآلى لا يهمه المناخ .

كما أن العمالة الرخيصة المرتبطة بمستوى تعليمى محدود أصبحت غير مجزية اقتصادياً ؛ إذ إنه فى معظم المجالات الخدمية التى كانت تعتمد على عمالة محدودة التعليم ، أثبتت التجارب أن مستوى التعليم المرتفع والقدرة على استعمال " الكومبيوتر " ، وإجادة اللغات فى هذه المجالات أيضاً ذات جدوى اقتصادية مؤكدة .

وعلى سبيل المثال : فإن عامل التفريغ وعامل الشحن وسائق اللورى الذين حصلوا على قسط عال من التعليم ويحملون " كمبيوتر" صغيرا يستطيع كل منهم أن يرسل عن طريق البريد " الإلكترونى " *E. Mail* قائمة مفصلة للشحن *Inventory* مصنفة ومرتبة من موقع إلى آخر، حتى المخازن ، متخطيا حواجز متعددة وملغيا خطوات مكتبية وإجراءات ورقية بما فى ذلك من وفر فى الوقت والنفقات ، وينطبق هذا على عمال الفنادق ومحطات البنزين وغيرها من الخدمات .

كما أنه من جانب أخر فإن النظام التقليدى الذى كان يعتمد على مخازن كثيرة تتسع لمخزون كبير من البضائع والمنتجات قد تغير هو الأخر فى ظل "اقتصاد الموجة الثالثة" الذى يعتمد على اتصال وثيق بين أسواق المستهلكين وخطوط الإنتاج، هناك اتصال مستمر بين طلبات المستهلكين وطلبات تجارة الجملة والبضاعة الموجودة على رفوف المتاجر يشبه نظام الأوانى المستطرقة هناك اتصال حيوى بين خط الإنتاج ورفوف المتاجر، مما يهمش إلى حد كبير دور المخازن وكمية المخزون، ذلك أنه فى التخطيط للإنتاج لا يتعين أن يكون هناك مخزون كبير إذ أن طبيعة الإنتاج المفصل فى الموجه الثالثة لمواكبة أذواق المستهلكين ومتطلباتهم التى تتغير بنسبة كبيرة وبشكل غير مسبوق تفرض مرونة فائقة فى خطوط الإنتاج ، وقدرة على التكيف بسرعة كبيرة مع هذه المتغيرات، مما يعرض المخزون للبوار؛ إذ أن الإنتاج مرتبط بوقت محدود وفترة محدودة *Just in time Production = On line Production* و *Zero Point Storage* وحينما تتغير الأحوال بمواصفات جديدة

تتكيف خطوط الإنتاج فائقة المرونة ، بطبيعة حاجة المستهلكين الجديدة وأذواقهم ورغباتهم المستحدثة ، دون فاقد يذكر من مخزون تقادمت مواصفاته وقل الطلب عليه وأصبح فاقداً من وجهة النظر الاقتصادية .

ويزيد من صعوبة الأمر أن خط الإنتاج نفسه قد ينتج سلعة واحدة بمواصفات معينة أو إضافات أو تعديلات تمليها رغبات المستهلكين ويتعين أن يتم الإنتاج فى تنسيق كامل مع كمية الطلب على هذه المواصفات الإضافية .

أصبح المستهلك فى الاقتصاد الجديد هو السيد الذى يحدد إلى حد بعيد مواصفات المنتج ، ومميزاته ، وطرق استعماله ، ونطاق الأسعار ، وذهب - إلى غير رجعة - عصر الإنتاج النمطى الذى كان يفرض فرضاً على المستهلكين أصبح المستهلك طرفاً فى عملية الإنتاج .

وحينما كان العالم ينظر بالإعجاب إلى نظام الإنتاج اليابانى *Kaizen* ، الذى يجتمع فيه المدير بالمهندس والمخطط والفنى والعامل لوضع برنامج الإنتاج، فقد أتى اليوم الذى أصبح المستهلك هو الحاضر الغائب فى هذا الفريق أو الشريك الاعتبارى فى اتخاذ القرار، أصبح نظام الإدارة وأسلوب العمل فى الإنتاج ميزة نسبية ذات جدوى اقتصادية ، وأصبحنا اليوم نتكلم عن الخطأ الصفرى ***Zero Defect Management*** بعد أن كنا نتكلم عن نظام الجودة الكلية ***Total Quality Management*** .

أصبحت الميزة النسبية لأى دولة أو أى تجمع هى المعرفة - التراكم المعرفى - الرصيد المعرفى العام - ولعلنا فى حاجة إلى معامل

أو معيار جديد بدلا من " *G.D.P.* " *Gross Domestic Product*
أو " *G.N.P.* " *Gross National Product* الدخل القومى المحلى
أو الإجمالى ، وهو الرصيد المعرفى القومى *N.I.R* أو *National*
Information Reserve ، فلم يعد كافياً أن تكون فى أى دولة
شريحة صغيرة من المتميزين أو العلماء أو الموهوبين ، بل أن القدرة
التنافسية لأى دولة ستعتمد بدرجة أكبر على الثروة المعرفية القومية
التى تعتمد على شريحة عريضة من القوى العاملة رجالاً ونساءً من
المتعلمين المتميزين والعلماء البارزين ومقدار محصلة الخبرات
والقدرات التى يمتلكها الشعب بأسره ، - القدرة على اكتشاف
"تكنولوجيات " جديدة - القدرة على اكتشاف أساليب تطبيق جديدة
ومبتكرة - تحقق جدوى أكثر وإنجازاً أسرع وأخطاء وفاقداً أقل ، وسعراً
أرخص ، تلك هى ثروة الأمم فى الألفية الثالثة .

الفصل الرابع

تطــــور العلاقـــات الاجتماعيـــــة والاقتصادية والسياسية عبر التاريخ

(عالم بلا أبعاد)

البعد الصفرى : عالم منعزل محدود :

إن عمر البشرية على هذه الأرض قصير فى عمر الزمن، وتشير الحفريات والأبحاث التى أمكن التوصل إليها أن معظم فترات وجود الإنسان على الأرض (حوالى مليونين من السنين إلا قليلا)، كان الإنسان يعيش فيها فيما يمكن أن يسمى بالبعد الصفرى فى إطار العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والتراكم المعرفى على حد تعبير "دينيس هنسلى" *Dennis Hensley* ، وكان العالم لا يزال فى العصر الجليدى ، وكان الانتقال محدوداً للغاية . . كان الإنسان محصورا فى الكهوف ، أو فى منطقه محدودة هى المصدر الأساسى للحياة وكانت تجمعات البشرية قليلة العدد : مجموعات تصل بالكاد إلى ٥٠ شخصا تستطيع منطقة محددة أن تكفل لهم مستلزمات الحياة .

كانت هناك عزلة جبرية ؛ فالاتصالات بين مجموعات البشر فى أنحاء العالم كانت معدومة ، التراكم المعرفى الذى يولده الاحتكاك بين مجموعات البشر كان منعدما ، وسائل نقل الخبرات وتسجيلها من مجموعة إلى أخرى أو من جيل إلى جيل كانت غير مكتشفة .

كـان البشـر يحتـاجون إلى إعـادة اكتشـاف الشـيء أو الاخـتراع *Reinventing the Wheel* جيلا بعد جيل ، ظلت البشرية ما يقرب من مليونى عام فـى هـذا البعـد الصفـرى (محلـك سـر) وكـان حجـم التقـدم الاجتماعى والاقتصادى والثقافى محدودا للغاية طوال هذه الفترة الزمنية الكبيرة .

وظلت الأمور على هـذا المنوال حتى نهايـة العصر الجليدى ، وحين بدأت كتل الجليد الضخمة في الذوبان واصبح الجو دافئا فى مناطق كثيرة ، فتح هذا التغيير البـاب أمـام الزراعة ، واستئناس الحيوانـات ، واستخدام الدواب فى النقل وفى الزراعـة ، ويـدأت التجمعـات البشـرية تـزداد عـددا وتكون مراكز أكبر حجما . . ويدأ الانتقال التدريجـى والمضطرد مـن حيـاة القنص والصيـد إلى الزراعـة ، ومن حيـاة الرحل والبداوة إلى حيـاة مدنيـة مستقرة ، وكان ذلك فى حوالى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد .

كمـا بـدأت عمليـة الانتقـال والاحتكـاك بـين التـجمعـات المختلفـة عـبر مجـارى الأنهار أو الممرات الطبيعية فـى الجبـال والوديـان ، ويـدأت بعض الطرق تأخذ أهمية أكثر ، وتكتسب حركة أكبر ، ويدأت قوافل الجمـال تعبر الصحـارى والوديـان حـاملـة السلع والشـحنات خـاصـة فـى حـوض البحـر الأبيض المتوسط ولعب طريـق العنبر دورا كبيرا فـى الانتقـال والسـفر ونقـل المواد والمنتجات من شمال أوربا إلى اليونـان والبحر الأبيض .

كما لعب طريـق الحرير دورا تـاريخيـا ، حـاملا من الصين مـا خـف حمله وغلا ثمنه إلى البحر الأبيض ، ومنه إلى دول أوربـا مـارا بـالهند وبغداد

والقسطنطينية والقاهرة فنشأت على طول هذه الطرق مراكز تجاريه ، بدأت تكون ثروات كبيره وتكتسب أهمية متزايدة لموقعها الاستراتيجي .

البعد الأول : كسر حاجز العزلة :

وهكذا بدأت التجمعات المنعزلة تلتقي مكونه خطا متصلا ، ناقلة البشرية إلى البعد الأول كما يطلق عليه *Dennis Hensley* ، وبدأت عمليات الانتقال الطولية تتزايد بين الشعوب والتجمعات المختلفة حاملة ليس فقط البضائع والسلع بل أيضا الأفكار والعادات والخبرات ، ولعبت الدول الناشئة أدوارا رائدة في نقل العلم والخبرة والمعرفة : من الهند جاءت الأعداد العشرية ، ومن تركيا تعرف العالم على الحديد والبرونز، ومن آسيا جاءت الجياد ، ومن إيران العجلات ومن مصر عرف العالم : ورق البردى - والجبر - والرياضيات - والهندسة - والزجاج - والتحنيط - والمعمار - ومن الصين عرف العالم : البارود - والبوصلة والصينى - وبجانب هذا كله بدأ العالم يتعرف على الفلسفة والأديان والثقافات والعادات .

البعد الثانى : الرحلات والاكتشافات الكبرى :

وحينما زاد عدد الطرق الطبيعية والمنشأة تقاطعت الطرق والممرات؛ فنشأت فى التقاطعات الرئيسية مدن، وحولها بدأت تتكون تجمعات ودول وإمبراطوريات ، وبهذا دخل العالم البعد الثانى الذى شكل نقلة حضارية نوعية .

ونشأت حضارات زاهرة فى مصر، والهند ، والصين ، وفارس واليونان وروما ، وأدرك الحكام والقادة الأهمية الاستراتيجية للطرق

والممرات واستطاع الصينيون القدماء أن يقيموا شبكة هائلة من الطرق بما فيها من «كبارى» ، وأقام الرومان عشرات الآلاف من الأميال من الطرق عبر الأحراش والجبال والوديان والأنهار وعلى مستوى هندسى رفيع .

وقام المصريون وأهل بابل بدراسة مفصلة لطبيعة الأرض والطرق وأعدوا خرائط لا تنقصها الدقة .

وتنامت أهمية وسائل النقل والاتصال ؛ فقام الفينيقيون والرومان والصينيون والبرتغاليون ببناء أساطيل بحرية لإحكام قبضتهم على الممرات المائية ، كان هذا كله خطوة على طريق الانتقال إلى مرحلة جديدة .

ولكنه فى الواقع لم يحدث الانتقال الكامل إلى البعد الثانى إلا بدءاً من القرن الخامس عشر حين تقدمت " التكنولوجيا " البحرية ، وبنيت سفن كبيرة وأساطيل ضخمة ، وجهزت بمعدات الملاحة الحديثة وأدوات التوجيه والقدرات الرياضية والجداول الملاحية التى مكنت من عبور البحار والمحيطات ، كان هذا إيذانا بدخول البشرية إلى البعد الثانى بكل أبعاده استطاع الأوربيون أن يدوروا حول أفريقيا ورأس الرجاء الصالح وأن يكتشفوا أمريكا ، تعاظمت حركة التجارة الدولية بين مختلف القارات والدول بما شكله هذا من تراكم معرفى واتساع فى العلاقات الاجتماعية وتغير فى الهياكل والأساليب الاقتصادية وتغيرات فى موازين القوى السياسية .

وبدخول البشرية البعد الثانى بدأت إرهاصات العولمة ، وبدأت القوى السائدة ، حكاما ودولا وتجارا ، فى التفكير والتدبير والاتصال عبر

الحدود الوطنية والإقليمية والجغرافية ، وبدأت المصالح الاقتصادية تقفز عبر الحدود تساندها فى بعض الأحيان سفارات وإشارات ، وتسبقها أحيانا مبشرون وإرساليات ، وتحرسها فى كثير من الأحيان أساطيل وجيوش .

وبدأت عملية احتكاك الحضارات والأفكار مولده فى كثير من الأحيان شرارات من الاكتشافات، وومضات من نظريات وفلسفات وطاقات من الإبداع والتقنيات الجديدة .

أصبح البعد الدولى أو العالمى بعدا أساسيا فى حساب البشر يؤثرون فيه ويتأثرون به .

وظهر الاستعمار ونشأت المستعمرات ، وجرت عمليات نهب منظمة لثروات الشعوب المستضعفة ، لم تقتصر على المواد الخام والمعادن النفيسة وآثارها التاريخية والمحاصيل الزراعية ، بل امتدت فى بعض الأحيان إلى الثروة البشرية ذاتها فى عمليات الاسترقاق واختطاف البشر وتسخير العبيد أو حشد المرتزقة ليكونوا وقودا للمعارك وضحايا للحملات العسكرية .

البعد الثالث : عصر اقتحام الفضاء :

لقد كان حلما للبشرية من قديم الزمن اختراق البعد الثالث للتحليق فى الفضاء ، والتغلب على مقاومة الجاذبية الأرضية للانطلاق فى الجو فى الآفاق الرحبة ، وكانت قصص الخيال العلمى مجالا خصبا لأحلام اليقظة وللآمال المنطلقة ، ومع حلول القرن العشرين بدأ الأمل يتحقق وانطلقت أول طائرة مروحية تعمل بآلة محركة فى بداية القرن .

وبدأ التقدم فى الطيران يأخذ خطوات متسارعة فى الحرب والسلم على حدٍ سواء ، وبدأت الطاقة الجديدة تسجل ميزة تنافسية كاسحة قادرة فى الحرب على صب أطنان من الجحيم على الجيوش المعادية ، مشكلة سلاحا حاسما فى المعارك الحربية .

كما بدأ الطيران المدنى فى كسر حاجز المكان والزمان وربط الدول والشعوب بدرجة لم يسبق لها مثيل .. لعب دوراً أساسياً فى عمليات النقل للأفراد والسلع على حدٍ سواء .

وبدخول البشرية البعد الثالث اكتسب البعد الدولى أهمية متزايدة وأصبحت الدول المتقدمة تستطيع أن تنقل جيوشا بأكملها إلى أرض الدول المعادية لها ، أو أن تفرض إرادتها على رؤسائها وعواصمها دون أن تطأ قدم جندى منها أرض الدولة الأخرى ، يكفى أن تقذفها بآلاف الأطنان من القنابل أو بواحدة من أسلحة الدمار الشامل ، أو تجبرها على التسليم بمجرد التهديد بالفناء والدمار.

كما أصبح عامل النقل عاملا حاسما فى التجارة الدولية لاحتلال الأسواق وسبق المنافسين فى التجارة الدولية ، وكسب المستهلكين .

كان البعد الأول - الذى استغرق خمس ألفيات - عاملا أساسيا فى نشأة المدن والمراكز التجارية ، ثم كان البعد الثانى - الذى استغرق خمسة قرون - سبباً أساسيا فى نشأة الممالك والإمبراطوريات وظهور المستعمرات ، ثم كان البعد الثالث نذيرا

بصراع القوى الكبرى على الفضاء ، ونذيرا بسيطرة المؤسسات متعددة الجنسية على التجارة العالمية .

البعد الرابع : العالم الاعتبارى :

ثم تأتى الثورة الإلكترونية والتفجر المعرفي وثورة الاتصالات والتقدم "التكنولوجي" المذهل، لتعد المسرح الكبير للمجتمع الاعتبارى *Virtual society* أو المجتمع اللامكانى *Spaceless society* .

البعد الأول : كان بعدا خطيا أو طوليا ، وكان هدفه اختراق حصار الطبيعة والتخلف ، وكان البعد الثاني : بعدا أفقيا : وكان هدفه إقامة الجسور والشبكات الاجتماعية والتجارية ، وكان البعد الثالث : بعدا رأسيا وكان هدفه إحكام السيطرة على الفضاء .

أما البعد الرابع : فكان بعداً اعتباريا أو خفيا وكان هدفه اختراق حاجز الزمان والمكان ، والسيطرة بلا وجود ، والاختراق بلا حدود ، والسيطرة على العقول بلا حاجة إلى قيود .

خلال هذه المسيرة التاريخية الطويلة ذات الأبعاد الخمسة تطورت المجتمعات، ونشأت الحضارات، وتقدمت الدول والإمبراطوريات، كان التقدم فى شكل موجة ترتفع حينا وتنخفض أحيانا ، ولكن التقدم الحقيقى ، كان يحدث ، حينما تتوافق التقنيات أو " التكنولوجيات " السائدة أو المكتشفة مع النسق القيمى أو "الأيديولوجيات " السائدة .

تقدمت مصر الفرعونية ؛ لأن " التكنولوجيات " الطبيعية المتمثلة فى وفرة المياه وغمر الفيضان ووفرة الطمى الآتى من أعالي النيل جاء مع أيدلوجية مناسبة :- مجتمع البنائين العظام - مجتمع منظم يؤمن بعقيدة موقن بأن هناك إلهاً ظله فى الأرض هو الفرعون ، وأن طاعته واجبة والانصياع لأوامره والانخراط فى العمل المنظم تحت قيادته مسئولية مقدسة، سواء فى الزراعة مستغلا عطايا الطبيعة " والتكنولوجيا " الطبيعية، أو فى كبح جماح الفيضان وإقامة الجسور، أو العمل المنظم فى بذر البذور ثم جمع الحصاد وتخزين الغلال ، وفى الإعمار والبناء ، كل ذلك فى إطار توافق بين "التكنولوجيا " الطبيعية " والأيدلوجية " السائدة ، فكان مجتمعاً مزدهراً على أرض النيل الخالد من آلاف السنين .

وفى روما : قامت إمبراطورية عظيمة ، ازدهرت لإيمان أهلها بالنظام وطموحهم إلى السيطرة ، كانت عقيدتهم ضد الفردية والأنانية بل كانت على العكس تشجع الانتماء للمجتمع ، كان نصف الشعب يتلقى دعماً من الدولة فى صورة غلال ودقيق .

كان انحيازهم إلى المبانى العامة الفخمة ، وإلى المرافق التابعة للدولة والتى كانت عنوانا للعظمة والفخامة ، ولم تكن هذه نظرتهم إلى المباني الخاصة .

ازدهرت الإمبراطورية الرومانية حينما توافقت " الأيدلوجية " السائدة مع " التكنولوجيا " المتاحة .

وكما كانت الصحوة ، وكما كان الصعود ، كانت النهاية ، وكان السقوط حينما تخلفت " الأيدلوجية " فى مرحلة لاحقة مع متطلبات التقدم .

جاء وقت رأى فيه الحكام أن المرتزقة الأجانب ، الذين كانوا جزءا هاما من قوتهم العسكرية، يمكن أن تقوى شوكتهم بالتزاوج والإنجاب فيصبحوا أغلبية قائمة بذاتها ، فقام الحكام بقتل الزوجات والأطفال فانعدم الولاء وتغلبت الأحقاد الناتجة عن الظلم والقسوة ، وانقلب المرتزقة على أعقابهم وانضموا إلى أعدائهم ، وكانت تلك بداية سقوط الإمبراطورية الرومانية .

وعلى صعيد آخر ، وفى الطرف الآخر ، من الكرة الأرضية نشأت حضارة عظيمة فى الصين ، وقبل الثورة الصناعية بثمانية قرون كانت هناك كل الإمكانات فى الصين لقيام ثورة صناعية جبارة ، كان الصينيون قد اكتشفوا الأفران الكبيرة و" تكنولوجيا " إنتاج الصلب والبارود – المدفع – البوصلة – الدفة – الورق – آلة الطباعة – البورسلين – الكباري المعلقة – آلات بذر البذور الميكانيكية – آلات حفر متطورة – الأعداد السالبة – وعشرات من الاكتشافات المذهلة التى تشكل فى مجموعها بنيه أساسية كاملة لثورة صناعية هائلة .

وفى مطلع القرن الخامس عشر كانت الصين مرشحة أن تقود الثورة الصناعية القائمة على إمكانات اقتصادية جبارة وقوة حربية متفوقة ولكن هذا لم يحدث فقد اصطدمت هذه الاكتشافات " التكنولوجية " مع العقيدة

" الكونفوشيوسيه " ولم تؤخذ هذه التقنيات على أنها فرص متاحة وميزة تنافسيه جبارة ، وإنما اعتبرت مشاكل يجب القضاء عليها ؛ فأهملت التقنيات باعتبارها مصدر خطر وليس مصدر خير أو ميزة تقدم ، وضاعت الفرصة التاريخية من الصين لتقتنصها بريطانيا بعد ذلك بثلاثة قرون .

كان التقدم فى هذه المسيرة التاريخية الطويلة لمن أخذ زمام المبادرة للذين رأوا الفرص المتاحة ، وأدركوا الإمكانات الكامنة ، كان السبق والغلبة والنصر لمن سبقوا التقدم المادي بفكر مستقبلى .. لمن مهدوا طريق التطوير والتحديث بالحلم الواعي والخيال المسئول . . لمن وقعت أبصارهم ليس على مواقع أقدامهم بل إلى القمم والنجوم .

الباب الثانى

العولمة أو (الكوكبية)

« الإعصار الخفى»

العولمة أو « الكوكبية »

الإعصار الخفى

تمهيد :

حينما انتصف القرن العشرون بدأ العالم يتعامل مع الموجه الثالثة بتطوراتها الهائلة وأحداثها المأساوية وصدماتها المرعبة وقوتها الصاعقة .

والسؤال هو: هل صحا العالم ذات صباح على هذا الإعصار الخفى؟ وهل تشكل ذات ليلة نظام عالمى جديد فاجأ البشرية بفجر واقع جديد قلب حياتهم رأسا على عقب ؟ أو هو تسارع فى شريط المسيرة التاريخية بنظام الإسراع إلى الأمام *Fast forward* فى أجهزة عرض "أفلام الفيديو" ؟

الأصح أننا فى مواجهة نظام قديم جديد فى شكل مختلف لقد تلاحقت أحداث التطور بسرعة مذهلة فاقت قدرة الكثيرين على المتابعة والاستيعاب فكانت صدمة المستقبل التى تحدث عنها "*Toffler* " من قبل ، كما أن طبيعة النظام الاعتباري كانت تجرى فى معظمها فى مجال الحقيقة الاعتبارية وفى إطار إلكتروني لا يمكن الإحساس به مادياً إلا إذا تهورنا بالإصرار على لمس أسلاكه الكهربائية وتجربة آثاره الصاعقة ، ولذلك فإن التغيرات تسللت فى الغالب إلى عقر دارنا، بل وإلى عقولنا، أدركت القلة فقط حجم التغير

الخفى الذى طرأ على العالم، ولكن جوهر النظام الجديد لازال على حد تعبير "نوم شـومسـكى" *Noam Chomsky* لاشيء جـــديد فى النظام العالمى فالقواعد الأساسية لازالت كما هى قواعد القانون للضعفاء ، وسطوة القوة للأقوياء : العقلانيـة الاقتصادية والإصلاح الاقتصادي للضعفاء وقوة الدولة وحق التدخل والسيطرة للأقوياء .

تغيرت الأشكال : - شكل القوة وأسلوب تطبيقها - شكل القانون وقواعد ممارسته - نوعية المصالح وكيفية حمايتها .

وفى أعقاب الحرب العالميـة الثانيـة كـانت مقولـة " تشرشـل " الشهيرة : " إن حكم العالم يجب أن يكون للدول التى أشبعت حاجاتها ، ولو ترك حكم العالم للشعوب الجوعى لكان هناك خطر داهم على العالم كله " .

وبإزالة ما تبقى من ماء الوجه من كلام " تشرشل " تبقى القاعدة المحددة للنظام العالمي : الأغنياء فى المجتمعـات الغنيـة يجب أن يحكموا العالم ، يتنافسون فيما بينهم ، ويقمعون من يقف فى طريقهم ، يساعدهم فـى ذلـك الأغنيـاء فـى الـدول الفقـيرة ، والآخـرون يخدمـون ويطيعـون ويتحملون.

طبيعة العولمة :

الجدل قائم فى كل مكان . . الناس يتساءلون . . العامة يتكلمون . . المثقفون يختلفون . . بعض الناس يتحدثون عن وحش مرعب . . يتحاكون عن قسوته وجبروته . . ولكنهم لم يشاهدوه ، والبعض يتبادل أخبار الوباء الخطير الذى داهم الناس ويتباكون على أخبار ضحاياه . . والبعض الآخر يتكلم عن المنقذ الأسطورى الذى طال انتظاره ، والذى ستمطر السماء فى عهده ذهباً وفضة ، كما يأتى حاملاً معه أكسير الحياة وحجر الفلاسفة ومفاتيح السعادة .

والنقاش على أشده بين من يحاولون الإجابة عن سؤال خطير : هل ندخل العولمة أو نرفضها ؟ والسؤال مغلوط وغير مطروح أصلاً فقد أصبحنا فعلاً جزءاً من العولمة .

الكل منشغل بالعولمة ، ولكن الجدل والنقاش يدور على غرار الأسطورة الهندية الشهيرة : التى تحكى عما حدث من اجتماع مجموعة من " العميان" مع فيل كبير ، واخذوا يصفون ما يتحسسون ، والعميان العشرة وصفوا كل شىء إلا الفيل . . كل منهم تحسس جزءا وأطلق لخياله العنان وشخص شيئاً أو مخلوقاً لا علاقة له بالواقع .

البعض يبسط الأمور.. أو بالأحرى يسطحها ، ويعتبر العولمة هى سيادة وانتصار اقتصاد السوق والديمقراطية ، أو أنها بشكل عملى أكثر هى عملية أمركة للنظام العالمى .

العولمة فى الواقع مفهوم تجريدى ، هو مفهوم مركب ذو أبعاد اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية ، وفى إطاره يصبح البعد الجغرافى أقل تأثيراً فى إقامة واستمرار العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية عبر الحدود والمسافات .

والعالم لا ينكمش حقيقة ولكن المسافات تصبح عملياً أقل استهلاكاً للوقت ، وفى إطار العولمة ينسلخ الناس والرموز والسلع من البعد الجغرافى وينتزعون فى كثير من الأحيان من جذورهم الوطنية وتفتقد كثير من الشعوب والمجتمعات الحماية التى كانت تكفلها لها حدودها .

لقد شاع استعمال تعريف العولمة بدرجة كبيرة فى التسعينات خاصة بعد انهيار سور برلين ، وسقوط الاتحاد السوفيتى ، ولكن التعريف كان شائعا منذ الستينات ، حينما شاع شعار : " فكر عالميا ونفذ محليا " *Think Globally And Act Locally* ولكن المفهوم نفسه يمتد أبعد من هذا بكثير إلى القرن الخامس عشر ، ونقلته النوعية عبر الحدود التقليدية ، حيث بدأت تتبلور إرهاصات العولمة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، وفرضت انتقالاً غير مسبوق للسلع والمنتجات والأفكار والتقنيات عبر الحدود وعبر المحيطات .

بينما يرى " توماس فيردمان " *Thomas Friedman* كاتب العمود الرئيسى فى جريدة " نيويورك تايمز " *New York Times* : " أن العولمة الحالية هى مجرد جولة جديدة " (الجولة الثانية فى تقديره) بعد الجولة الأولى التى بدأت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بحكم

التوسع الهائل فى الرحلات البحرية باستخدام طاقة البخار والتى أدت إلى اتساع حجم التجارة الدولية بشكل لم يسبق له مثيل .

وأياً كان الأمر فإن من اللافت للنظر أنه فى أعقاب كل جولة من جولات العولمة ، شهد العالم حروباً عالمية أو محلية ، وموجات من النزاعات والصراعات المحلية ، وحملات من التطهير العرقى وإزهاقاً غير مسبوق لأرواح ملايين من البشر ، وازدياداً لمعدلات الإرهاب والتطرف .

الفصل الأول

ديناميكية العولمة أو « الكوكبية »

أولاً : المحركات الأساسية :

المحرك الأول : الثورة « التكنولوجية » وثورة الاتصالات :

لا شك أن أهم المحركات لظاهرة العولمة كانت القدرة التكنولوجية وثورة الاتصالات التى استطاعت بطريقة عملية أن تخترق حواجز الزمان والمكان، وأن تحول الحدود كل الحدود إلى كيانات مسامية *Porous* ، وأن تلغى واقعياً فكرة الحواجز أو الأسوار.

إن العزلة المطلقة التى كانت سائدة ما يقرب من مليونى سنة والعزلة النسبية التى سادت لألفيات خمس بدأت تتبدد بشكل متسارع فى القرون الخمسة الأخيرة ، بدءاً من القرن الخامس عشر، واقتلعت من أساسها فى العقود الخمسة الأخيرة ، وأصبح الحدث أينما وقع حدثاً عالمياً بمجرد حدوثه ورؤيته أو سماعه عبر طرق الاتصال الفائقة السرعة ، كما أن انتقال الانسان والسلع والآلات وانتقال المعرفة من مكان إلى مكان أصبح واقعاً يومياً لا يمكن أن تلغيه حواجز أو إجراءات ، ولا يخضع فى معظم الأحيان لإرادة أحد ، وفى كثير من الأحيان لا يتم بعلم أحد .

المحرك الثانى : اقتصاد السوق :

والمحرك الثانى هو فى سيادة وانتصار الديمقراطية (بصرف النظر عن جوهرها الحقيقى) ، واقتصاد السوق ، وسقوط نظرية الاقتصاد الموجه والتطبيقات الماركسية .

فلا يوجد فى العالم نشاط فى جوهره عالمى كالتجارة ، ولا توجد "أيديولوجية" تتجاهل الكيانات الوطنية كالرأسمالية ، ولا يوجد تحد أكثر وقاحة وجرأة على الحدود كالسوق .

وإذا كنا نطلق أحيانا - فى إطار العولمة - على بعض المؤسسات أنها متعددة الجنسية فإنها فى الواقع متعدية الجنسية ، أو مؤسسات فوق الجنسية أو الوطنية .

المحرك الثالث : عولمة الإنتاج :

العوامل التقليدية من رأس مال ومواد خام وأرض وعمالة أصبحت كلها ذات طبيعة دولية ؛ فرأس المال الموجود الآن فى الصناعات الكبرى فى مختلف دول العالم أصبح ذا طبيعة متعددة الجنسيات ، بل إنه من المتعذر فى كثير من الأحيان أن تتبع بدقة مصادر رأس المال الحقيقية .

ومن المثير للدهشة طبيعة المساهمين فى نظام الاحتياطى "الفيدرالى " الأمريكى *Federal Reserve* طبقا لما يذكره " ماك ماستر" *Mc Master* الذى يصدر مجلة مالية باسم الحصاد *Reaper* ، الذى توصل

إلى أسماء المساهمين الثمانية الرئيسيين برغم وجود حظر قانونى على إعلان أسمائهم وهم :- بنك روتشيلد فى لندن وبرلين - وبنك لازارد فى باريس - وبنك إسرائيل موزيز سيف فى إيطاليا - وبنك واربورج فى هامبورج وامستردام - وبنك ليهمان فى نيويورك - بالإضافة إلى بنوك أخرى فى أمريكا - إن هذا التشكيل متعدد الجنسية واضح الدلالة على واقع العولمة .

بالإضافة إلى ذلك فإن ازدياد الأهمية النسبية للمعرفة وهى عملة دولية بطبيعتها قد قللت من الأهمية النسبية لرأس المال النقدى ، بل وأدت إلى تقليل دوره فى عملية الإنتاج ، وفيما يتعلق بالمواد الخام : فإن التطور الهائل فى وسائل النقل والشحن ، واكتشاف المواد الجديدة ، قلل من الميزة النسبية لتوافر المواد الخام فى أى بلد ، وأبرز مثل على ذلك اليابان التى تستورد معظم المواد الخام الداخلة فى صناعاتها بل والوقود أيضاً .

كما أدت قدرة " التكنولوجيا " وخاصة فى " البيولوجيا " الحيوية والكيمياء الإحصائية ومجالات الإنسان الآلى والتحكم عن بعد إلى التقليل من أهمية الأرض واليد العاملة على حدٍ سواء .

وكان من محصلة ذلك كله أن المنتج النهائى سواء أكان سيارة أم طائرة أم كمبيوتر أصبح منتجاً عالمياً فى كل مكوناته ، سواء أكانت مواد خاما أم معرفة أم فى العناصر البشرية التى دخلت فى عملية التصميم والإنتاج والدعاية والتسويق ، أم فى طبيعة التمويل .

بل إن كثيرا من المجالات الحاكمة فى الاقتصاد العالمى كالصناعة المرتبطة بالطيران ، والاتصال ، والبرمجيات ، والسياحة [التى تحقق وحدها دخلاً سنويا قدره ٣,٤ ترليون دولار كل عام وهو ما يمثل ١٠,٢٪ من حجم الدخل القومى العالمى] أصبحت كلها بلا استثناء عالمية فى تعريفها وجوهرها ومدلولها ونشاطها .

وانتشار قوى السوق وسيادة آلياته لا تطيق قيودا فى سعيها لزيادة انتشارها ؛ فهى حين تضع قدما فى منطقة أو مجال تضع قدمها الأخرى بأسرع مما دخلت بالأولى، فالتجارة الدولية لا تطيق حدودا، ولا تعترف بحق أى دولة فيما كان متعارفاً عليه أنه حماية أو دعم أو إجراءات وقائية.

إننا أشبه ما يكون الآن بمن تصادف وجوده فى بدء تفاعل كميائى لا حيلة له إلا أن يتابع بانبهار أو باستسلام تتابع سلسلة التفاعلات الكيميائية دون أن يستطيع أن يوقف مسيرتها .

المحرك الرابع : تغير الخريطة « الجيوسياسية » العالمية :

لاشك أن تغير الخريطة " الجيوسياسية " للعالم واختلال ميزان القوى الدولى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، وانفراد أمريكا بالسيطرة العالمية ، وهى التى ارتبطت مصالحها وأنشطتها إلى حد كبير بالقطيع "الإلكترونى " ، كان عاملا هاما فى ترسيخ العولمة ، الأمر الذى حدا بتوماس فريدمان أن يعتبر العولمة عملة أمريكية بل أن " بنجامين باربر "

Benjamin Barber يرمز للعولمة بأنها عالم " ماك " *McWorld* نسبة إلى سلسلة مطاعم ومحلات " ماكدونالد " الشهيرة الأمريكية .

لقد كان سقوط حلف " وارسو " والاتحاد السوفيتى ضوءاً أخضر للعولمة بأن تمد أذرعها بلا حياء ولا تردد إلى كل أنحاء العالم ، ودون أن تتوقع مجرد المعارضة أو المقاومة .

الفصل الثانى

الآثار الجانبية وردود الأفعال للعولمة أو « الكوكبية »

١- الآثار المحتملة على الدولة ومسئولياتها :

يتخوف كثير من المفكرين من أن دور الدولة فى سبيله إلى الاضمحلال ؛ ذلك لأن مهمة الدولة مرتبطة بحدود سيادية تمارس فى داخلها مسئولياتها وسلطاتها . فإذا أصبحت الحدود مسامية أو شفافة أو مستباحة فان قدرة الدولة تضعف بمقدار عجزها عن معرفة أو تتبع ما يدخل أو ينفذ إلى مجال سلطاتها ومسئولياتها ، وتصبح الدولة فى كثير من الأحيان كمن يتتبع شبحاً، أو يطارد وهما .

بل إن بعض المفكرين (أمثال "رود لوبرز" *Ruud Lubbers*) : يذهب إلى أن الدولة التى كانت فى ظل النظرية الكينزية الجديدة *Neokeynesian* تقوم بوظيفة حارسة الصالح الوطنى العام ، تحولت إلى القيام بوظيفة حارسة رأس المال العالمى ومصالح " القطيع الإلكترونى ".

وتصبح الدولة فى هذا الإطار، عاجزة عن القيام بدورها فى إعادة توزيع الناتج القومى بطريقة أكثر عدلا ، وتصبح عاجزة عن حماية مصالح الشرائح الأقل قدرة أو المهمشة ، كما أنها تصبح أقل قدرة على حماية البيئة

والوقاية من آثار تلويثها وتدميرها ، وتنتهي بأنها لا تستطيع أن تحمي السلام الاجتماعي نفسه على أرضها .

ومن الطريف أنها في النهاية قد لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها الجديدة كحارسة لرأس المال العالمي وضمان عائداته وحماية حقوق الملكية الفكرية ومقاومة الجريمة وضمان الاستقرار والسلام ، وهي ضمانة أساسية للاستثمار سواء كان محليا أو عالميا .

٢ - الآثار الاجتماعية :

وفي إطار العولمة قد ينساق كثير من الدول في سباق نحو القاع أو الهاوية ؛ إذ أنها في إطار التسابق إلى مزيد من الإعفاءات والحوافز والميزات النسبية التي تعرضها على المستثمر الأجنبي لجذب الاستثمارات العالمية تجد نفسها في مواجهة عجز متزايد في إيراداتها كما أنها في إطار الاستجابة لشروط العولمة تجد نفسها مضطرة إلى تقليص أو إيقاف الدعم لغير القادرين وإلغاء التأمين على المهمشين والأفراد الأكثر تعرضا للمخاطر، وعلى حد تعبير الدكتور جلال أمين : "فان بعض الدول تتحول إلى صورة كوميدية لها كل المظاهر الخارجية للدول ذات السيادة ، ولكنها في الحقيقة تنحصر مهامها في عملية الإخلاء والتسليم والتسلم " والأمر هنا لا يعكس وجهة نظر معادية للعولمة أو صادرة من موقف عقائدي معاد لها، ولكن أشد أنصارها لا يجد حرجاً في التصريح بمعنى هذه الأفكار، فعلى سبيل المثال : يقول

" توماس فريدمان " : " الأمل الوحيد أمام الفقراء والبؤساء هو أن يتذكرهم الأغنياء " .

ويقول " ساسكيا ساسين " أحد أهم كتاب العولمة : " إن القطيع الإلكترونى ذا الألف ذراع " وقد يكون تعبير " التنين الإلكترونى ذو الألف مخلب " أكثر دلالة على أن هذا القطيع يتحكم فى نصف رأس المال العالمى من خلال ٢٥ سوقا مالية تتعامل فى ٢٠,٩ ترليون دولار" ولا يقتصر تحكم القطيع على الأسواق المالية ، يضارب فيها ويزعزع احتياطياتها ويستنزف مواردها ، فانه أيضا له مؤسساته العقابية أمثال : " ستاندارد آند بورز " *Standard & Poors* " ومودى " *Moody* التى يوكل إليها مهمة المراقبة والتلصص على الدول والمؤسسات ، والتسلل داخلها لمراقبة مدى التزامها بشروط العولمة وقوانينها فإذا ما عصت أو تلكأت أطلقت عليها كلاب الصيد تنهش اقتصادياتها ، وتبرز لها كروتا حمراء تطردها من السوق وتخرب مؤسساتها ، ومن اللافت للنظر أن الشركات الخمس الكبرى فى مهنة المحاسبة الدولية شركات أمريكية تابعة للقطيع الإلكترونى .

وأن من شروط العولمة الرئيسية أن تتم المراجعة المالية والاقتصادية فى إطار عالمى .

أما من يرضى بشروط القطيع وإدارته، ويلبس قميص "التكتيف الذهبى" *Golden Straightjacket* على حد تعبير "توماس فريدمان"

فإنه يحصل على صكوك الغفران ، ويعطى شهادات صلاحية تمهد لمزيد من الاستثمارات الأجنبية والوجود العولى ، بعض هذه الشروط ضرورى من وجهة نظر الإصلاح الاقتصادى ، ولا اعتراض لنا عليها ، ولكن هناك شروطاً أخرى قد تتعارض مع مصالح دول معينه وشرائح اجتماعية غير قادرة .

الشروط التى يمليها " القطيع الإلكترونى " نمطيه وإجبارية : الخصخصة لكل الشركات المملوكة للدولة ، وتحرير التجارة الداخلية والخارجية ، ورفع الحواجز الجمركية ، الحد من التضخم ، تقليص قدرة البيروقراطية الحكومية ، وإلغاء كافة القيود على الاستثمارات الأجنبية ، وتحرير أسواق المال ، حرية الأجانب فى التملك ، إلغاء الدعم ، تحرير نظام التأمين والمعاشات ، وترك المسئولية فى ذلك للأفراد ، النمطية فى نظام المحاسبة والمراجعة المالية الخاضعة للإشراف العولى .

فى عام ١٩٩٢ حدث أن أحد أفراد هذا القطيع وهو (جورج سورس) المتسبب فى الأزمة المالية فى شرق آسيا اختلف مع رئيس الوزراء البريطانى " جون ميجور " وكان ذلك فى سبتمبر.. اختلف معه حول تقدير قيمة الجنيه الإسترلينى ، وكان رأى " سورس " أنه لا مفر من تخفيض قيمة الجنيه الإسترلينى ، قابل " جون ميجور " هذا الرأى بالرفض التام ، وأعلن أن موقف إنجلترا الاقتصادى متين ، وقرر بإباء وشمم عدم

الخضوع لما قاله " سورس " ولم تمض بضعة شهور إلا واضطر " جون ميجور" مرغماً إلى تخفيض قيمة الجنيه الإسترليني بمقدار ١٢٪.

الهند عندما أطلقت قنبلتها الذرية .. فورا أنزلتها " ستاندارد آند بورز" من مرتبة الاستثمار إلى مرتبة المخاطر..!

وتكررت المشاهد بصور مختلفة مع ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا.

- نظام العولمة له قوة طاردة مركزية تقتلع الانسان من جذوره .. ومن تربته .. يتخلخل النسيج الاجتماعي بسببه ؛ فهو لا يطيق حواجز أو قيوداً يجتاح كل الحدود الجغرافية والوطنية ، وكثيراً ما تكون الأخلاقية ؛ فالسوق في النظام الجديد لا تطيق حدوداً .

إن نظام العولمة لا يفكر فيما نتعارف عليه في مجتمعنا وما يطلق عليه أو اصطلح على تسميته (الصالح العام) ؛ لأنه ليس في أولوياته أو على أقصى تقدير فهو يوكل المهام التي تتعلق بهذا الصالح العام إلى مؤسسات هلامية أو وهمية لا تستطيع أن تقوم بدور فاعل ، علما بأن (دولة الرفاهية أو دولة الرعاية الاجتماعية) هو اختراع رأسمالي - " بسمارك " - "تشرشل" - " روزفلت " " فبسمارك " هو الذي اخترع معاشات العجزة والرعاية الصحية و" تشرشل " هو الذي أقام أول نظام شامل للتأمين ضد البطالة و" روزفلت " هو الذي خطط لدولة الرفاهية الاجتماعية التي أنقذت النظام الرأسمالي ، كلهم كانوا نبلاء من

الطبقة الرأسمالية ، وأفكارهم هى التى أطالت عمر الرأسمالية ، وجعلت النظام الرأسمالى يسود، وساعد فى القضاء على الشيوعية ، وكان هذا ذكاء منهم .

أما الآن فقد وصل النظام الرأسمالى إلى درجة تصور فيها أنه لا يحتاج للصالح العام ، " والقطيع الإلكترونى " فاق جشعه ونهمه كل الحدود لدرجة أنه لا يعطى الأهمية للصالح العام ، ولهذا يقول " توماس فريدمان " : المقولة الغريبة التى أشرنا إليها من قبل : (إن أقصى أمل للفقراء والبؤساء هو أن يفكر فيهم الأغنياء أو يتذكرهم الأغنياء) .

نحن نجابه تحديا خطيراً ، نحن بلد فيه حضارة ٧٠٠٠ سنة وبه طبيعة خاصة بما فيه من جذور، وتقاليد، ومعتقدات، وتماسك ووسطية وانفتاح ، وصفات تميز هذا الشعب . . إننا لا نستطيع أن نغامر بالتعرض لكل المضاعفات التى يمكن أن تحدث فى هذا الإطار ، والمضاعفات هذه مدروسة والغرب بمفكريه يتكلم عنها الآن .

ولا تقتصر آثار العولمة على تضاؤل قدرة الدولة فى حماية السلام الاجتماعى ، ولكن الثورة التكنولوجية والمعلوماتية أدت إلى تغيرات جوهرية فى سوق العمل ، والتركيبة الاجتماعية لقوة العمل فى معظم البلاد .

لقد كان الأمل فى البداية انه فى إطار الموجه الثالثة فإن اندثار مهن معينة ، وإحلال الانسان الآلى و" السوبر كمبيوتر " محل أعداد كبيرة

مـن القـوة العاملـة ، سـيخلق فـى نفـس الوقـت فرصـا جديـدة ، ومـهنا مستحدثه، وأنه سيولد صناعات فرعية تخلق فرص عمل جديدة ، ومتجددة من خلال ما يعرف باسم " *Trickle-Down Technology* " الذى تتـوالى مـن خلالـه عمليـات تنشـيط وتجديـد واسـتحداث مسـتمر "لتكنولوجيات " جديدة ، ولقد حدث فعلاً أن تحقق هذا إلى حد ما ، ولكنه فى حـالات كثيرة ودول متعددة قصرت الآمـال عـن مواجهـة متطلبـات الواقع .

وفـى أمريكـا مثـلاً حـدث شـرخ اجتمـاعى هـائل بـين مـن يملكون تعليماً متميزاً رفيع المستوى أو تعليما جامعيا وبين من تلقوا فقـط تعليمـاً أساسـياً ولم يكملـوا تعليمـهم العـالى ؛ فقـد ثبـت فـى السنين الأخيرة أن فرص العمل المتاحة كـانت تتناسب طردياً مـع مستوى التعلم ، وان احتمـالات البطالـة كـانت مـن نصيـب مـن لم يكملـوا تعليمـهم ، وحـدث مـن جراء هـذا شـرخ اجتمـاعى خطـير؛ لأن غالبيـة الذيـن فقـدوا أعمـالهم كـانوا مـن السـود أو الأقليـات ، وأدى هذا إلى شعور بالتفرقة داخل المجتمع ، وصاحب هذا الشرخ الاجتماعى شـرخ آخـر ، فقـد زادت الهـوة بـين الأغنيـاء والفقـراء ، وطبقـا لمـا يقولـه "ليستر ثورو" :- " فان خمس المجتمع الأمريكى الأكثر غنى قد زاد غنى ٩٪ بينمـا ازداد خمس المجتمـع الأفقـر فقـراً ٥٪ " وازداد لـذلك تآكـل الطبقـة الوسطى .

وفى مصر : فإن نسب البطالة أيضاً كانت متناسبة مع مستوى التعليم .. ففى دراسة أجراها مجلس الوزراء ثبت ان البطالة المتعلمة فى مصر - ويبلغ حجمها [١,٤ مليون] عام ١٩٩٦ - كانت نسبة البطالة فى التعليم الجامعى لا تتجاوز ١٠٪ ، فى حين تصاعدت نسب البطالة فى التعليم المتوسط والفنى إلى أكثر من ٨٠٪ .

وعلى المستوى الدولى : فإن الدول التى سبقت إلى الدخول فى العولمة من موقع المتقدمين كانت أقل عرضة لاحتمالات البطالة بينما كانت الدول النامية والدول الفقيرة أقل حظاً بكثير ، فشاعت فيها ظاهرة البطالة التى تصاحبها أعراض الفقر والمرض والجوع والضياع .

ولا تقتصر هذه الآثار على الدول التى تتعرض لها مباشرة ، بل إنها تشكل " قنبلة موقوتة " تهدد بالانفجار فى الدول الغنية والمتقدمة ؛ إذ أن احتمالات الهجرة الجماعية غير القانونية واحتمالات الإرهاب والتطرف واحتمالات انتشار الأوبئة الخطيرة أو تسربها إلى الدول الغنية يتعاظم مع ظاهرة العولمة وثورة الاتصالات وغير ذلك .

إن من سخريات القدر أن الدول التى غلبت آليات السوق ، ولم تعن - فى سباقها الرهيب نحو الربح - باعتبارات السلام الاجتماعى أو بمصير غير القادرين ، تصبح عرضة للمعاناة من آثار العولمة شأنها

فى ذلك شأن الفقراء والضعفاء ، وتتحقق ـ بطريقة مأساوية ـ المقولة الشهيرة : " المساواة فى الظلم عدل " .

بالإضافة إلى ذلك فان ظروف العمل المتاحة فى السوق العالمية للعمال من الدول الفقيرة الذين تتاح لهم فرص عمل فى مؤسسات العولمة ظروف بالغة السوء أحياناً ، بالإضافة إلى تزايد ظاهرة عمالة الأطفال بما فيها من أخطار ومظالم اجتماعية وصحية وسياسية .

إن العولمة كنظام اقتصادى لابد لها من إطار اجتماعى ، إن القرية الكونية لابد لها من مجتمع تربط بين أفراده وجماعاته علاقات من الاهتمام المشترك ، والمشاركة الوجدانية ، والمشاعر الإنسانية . لابد أن يكون للعولمة وجه إنسانى ، ولابد للنظام الاقتصادى من مجتمع بشرى ، وإلا تحول " القطيع الإلكترونى " إلى وحش كاسر وتحولت القرية الكونية إلى غابة .

٣- الآثار السياسية :

لقد أدت سيطرة " القطيع الإلكترونى " ذى الألف ذراع إلى إضعاف المؤسسات الديمقراطية بدءاً من الدولة كحارس للسلام الاجتماعى وكمسئولة عن دعم الصالح العام .

ومروراً بالأحزاب السياسية التى يبدو أنها قد فقدت أخيرا كثيراً من فاعلية تأثيرها فى الحياة السياسية ، وفقد عديد من زعمائها

بريقهم السياسى و " الكاريزما " *Charisma* التى كانوا يعتمدون عليها وأصبح الكثيرون منهم تحت سيطرة " القطيع الإلكترونى " وعرضه لابتزازه إذا ما خرجوا عن الطوع .

كما أن المنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية التى تعاظم دورها فى العقدين الأخيرين بدأت تمارس دورا متزايدا فى الحياة السياسية على حساب الأحزاب .

ولقد حرص " القطيع الإلكترونى " أن تمتد أذرعه إلى الحملات الانتخابية والرئاسية وإلى الانتخابات البرلمانية - ترشيحا ومساندة مالية وإدارة للحملات الانتخابية - فضلاً عن سيطرته على كثير من وسائل الإعلام التى - تشكل إلى حد كبير - الرأى العام .

وأخيراً فإن الديمقراطية تتناقض أساساً مع الرأسمالية واقتصاد السوق فعلى حين تتأسس الديموقراطية على صوت واحد لكل شخص وموقف متساو أمام القانون وتكافؤ فى الفرص فإن الرأسمالية تمجد عدم التكافؤ، وتشجع عليه إذ أن الأساس هو مزيد من الربح ، وهو نقيض المساواة ، كما أن اقتصاد السوق لا يطيق قيوداً أو قواعد يفرضها النظام الديموقراطى حرصاً على الصالح العام .

فى المجتمع الأمريكى هناك نسبة تبلغ حوالى ٤٪ من المواطنين على قمة السلم الاجتماعى تمتلك أكثر مما يملك ٥١٪ من المجتمع الأقل دخلاً .

وإذا نظرنا إلى رموز العولمة فإننا نجد أن بعضهم يمتلكون ثروات تزيد عن الدخل القومى لعدد كبير من الدول النامية مجتمعة أليس غريبا أن "جورج سورس" أحد رموز العولمة ، والذى كان وراء أزمة جنوب شرق آسيا ، هو نفسه الذى أسس مؤسسة غير حكومية ، هدفها الأساسى هو دعم ورعاية ما يسميه بالمجتمع المفتوح *Open Society Fund* !! ويبلغ حجم الاعتمادات التى يخصصها من أمواله الخاصة ٣٠٠ –٤٠٠ مليون دولار سنويا يمول بها جمعيات غير حكومية وأهلية غير خاضعة لأى إشراف حكومى !! أو التى يؤدى نشاطها إلى تقليل حجم تدخل الدول فى كافة المجالات !! فهل هو يهدف إلى شل يد الدولة عن التوجيه والإشراف ؟ أو التدخل لتأكيد السلام الاجتماعى والصالح العام وحسن توزيع الدخل القومى ؟ أو انه مجرد عمل خيرى فى إطار حسن النوايا ؟!

وهل تنبع أهداف "جورج سورس" من إيمانه بأن من أهم عيوب النظام الرأسمالى العالمى أنه قد سمح لآليات السوق أن تتسلل إلى مجالات لا تمت إلى السوق بصلة ؟ وأن طرق أصولية اقتصاد السوق (أو مذهب العصمة للسوق) *Market Fundamentalism* ساذجة وغير منطقية؟؟ وأن قوى السوق لو تركت تباشر سلطة مطلقة حتى فى المسائل الاقتصادية ستؤدى إلى فوضى شاملة وسقوط النظام الرأسمالى نفسه ؟؟ وأن العالم الآن فيه اقتصاد عالمى بدون مجتمع عالمى ، وأنه

لابد من تواجد نظام سياسى عالمى لاتخاذ القرار، وأن هذا النظام بطبيعته يجب أن يتعدى إطار سلطة الدول وأن يتخطى حدودها؟؟!!

هل يا ترى "سوروس" يهدف من مؤسسته "المجتمع المفتوح" أن يمهد لمثل هذا النظام السياسى العالمى الذى يحجم عملياً دور الدولة ؟ أو أنه ينفق هذه الأموال الضخمة لأغراض خيرية واعتبارات إنسانية تعبر عن نزعة خير دفينة ، أو صحوة ضمير يحاسب نفسه على ما سببه من شقاء لملايين من البشر كانوا ضحية مضارياته العبقرية ؟؟!!

٤- الأمـــن :

كما قلت من قبل فلقد شهدت جولتى العولمة " فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين " موجات من العنف لم يسبق لها مثيل حروباً عالمية وصراعات وتصفية عرقية ، موجات من التطرف والإرهاب ، سفكاً غير مسبوق للدماء بما شكله من موجات من الهجرة غير القانونية ، وتزايداً للمنظمات والأعمال الإرهابية وازدياد نشاط عصابات إرهابية بدأت فى نشر الجريمة المنظمة فى مجالات التقدم "التكنولوجى" والاتصالات ومن عصابات لقطع غيار الأعضاء ، إلى عصابات للدعارة والقمار، إلى عصابات للابتزاز والقتل المعنوى .

فضلا عن احتمالات الأعمال الإجرامية والإرهابية التى يقوم بها المهمشون والضائعون والمتمردون فى الدول والمجتمعات التى سقطت ضحية العولمة .

٥- البيئـــة :

إن زيادة معدلات الإنتاج والاستهلاك مع نظام العولمة هو شيء طبيعي مع الثورة التكنولوجية والمعلوماتية ، ومع السياسة الثابتة لسيادة اقتصاد السوق الذي يهدف دائما وبصفة منتظمة إلى خلق حالة من عدم الرضى عن المنتجات القائمة ، وبذلك فهو يمهد الطريق لدخول منتجات جديدة بمواصفات جديدة يفترض أنها تعمل على إرضاء المستهلكين ، ثم يتولى جهاز الإعلام الرهيب خلق حالة جديدة من عدم الرضى وهكذا دواليك، وعلى حد تعبير " شومبيتر " وزير مالية النمسا الأسبق : " فإن جوهر الرأسمالية هو عملية التدمير الخلاقة " : " تدمير القديم - والمنتج الأقل كفاءة - وإحلال ما يفترض أنه أكثر كفاءة " .

ويتزايد معدلات الإنتاج والاستهلاك يزداد تدهور البيئة ؛ ذلك أن استراتيجية العولمة لا تضع بين أولوياتها معايير الحفاظ على البيئة وغيرها كالصحة وظروف العمل ؛ إذ أن السياسة الاقتصادية للعولمة من صالحها اقل المعايير دقة وأدناها تكلفة لهذه القضايا . وبما أن الدولة في ظل العولمة مشغولة بالجدوى الاقتصادية والإصلاح الاقتصادي ، فإن قضايا البيئة عادة تتراجع في أولويات اهتمام الدولة إلى الخلف ، كما أنه لا يوجد نظام مؤسسي دولي يستطيع أن يسبغ الحماية الخاصة بالبيئة على الدول المختلفة في وجه الاستهلاك المدمر.

ولا تقتصر آثار تراجع الاهتمام البيئى وآثاره المدمرة على الجيل الحالى والشرائح الأكثر تعرضا فيه ، وإنما خطورته انه يشكل اعتداء لا أخلاقيا على قدرات وحقوق بل والنظام الجينى للأجيال القادمة .

٦- الثقافة :

بعد أن تحدثت عن (إيدز المعرفة) اليوم يتكاثر الكلام عن ظاهرة اسمها *Technopoly* وسيطرة " التكنولوجيا " الفائقة على الثقافة والحضارة وما نتج عنها من موجات من الانحلال الخلقى والتفكك الأسرى والعنف والجريمة والإدمان والتهرب من المسئولية بل والهروب من الحياة ذاتها بالانتحار، هذه ظواهر تجتاح كثيراً من دول الغرب المتقدمة .

اليوم بدأت فى إطار " التكنولوجيا " المتطورة تنشأ ثقافة للعنف فى كثير من البلاد المتقدمة والنامية على حدٍ سواء .

إن حجم صناعة البرامج الإليكترونية الخاصة بالتسلية والتى أساسها العنف ١٦ مليار دولار سنويا فى أمريكا وحدها كما قلنا من قبل .

لعلكم تتذكرون ما أشرت إليه من قبل . . حادثة طالبى المدرسة الأمريكية اللذين قاما بقتل زملائهما وناظر المدرسة

هذان الطالبان هما ضحيتان لهذه الصناعة المدمرة التى سبق وان حذر منها الرئيس الأمريكى السابق إيزنهاور فى يوم من الأيام وسماها " *The Military Nintendo Complex* " والتى أصبحت اليوم حقيقة واقعة ، فقد ثبت من التحقيقات أن الأولاد كانوا يشاهدون هذه البرامج الإليكترونية ، وأن " السيناريو " الذى نفذ كان موجودا فى برنامج اسمه " *Doom* " وقد وجدوا شريط " فيديو " قام الطالبان بإعداده لتصوير أحداث مشابهة لاقتحام المدرسة ، وأنهما استعارا لنفسيهما اسماً مثل (*Kill Again*) *Killagan* وتعنى : " أقتل ثانيةً " .

وبالإضافة إلى هذا فإن الرئيس كلينتون حذر فى عام ١٩٩٨ م فى خطاب رسمى من ثقافة العنف ، وأن صناعة " الفيديو " والسينما والبرامج " الإليكترونية " التى تبث على الشعب الأمريكى تركت تأثيرات خطيرة جدا .. فقد أزالت الحد الفاصل بين الحقيقة والخيال لدى أجيال كثيرة ؛ فالطالبان اللذان قتلا زملاءهما كانا ينفذان "سيناريو" أو مشهداً من السيناريوهات التى شاهداها فى "الكمبيوتر" و"الفيديو" ولم يشعرا أنهما قاما بجريمة .

ومن الثابت علميا أن تعود الإنسان على العنف يقلل من إحساسه بجرم أو غرابة أو استهجان هذا الفعل (عملية تقليل الحساسية) ***Desensitization*** .

وكما قلنا من قبل فإن إحساس الإنسان الذى تعود على مظاهر القتل يحصنه ضد أى تعاطف مع عدم القتل ، نحن نعيش مرحلة نبنى فيها ثقافة عالمية يؤثر فيها العنف والتدمير على الأجيال القادمة .

المفكرون الأمريكيون يقولون :- " إن المجتمع الأمريكى متسمم بالتكنولوجيا *Technologically Intoxicated society*" لا أحد ينكر أن " التكنولوجيا " استطاعت أن ترفع مستوى الحياة فى كثير من الأحيان واستطاعت أن تحقق الرخاء فى كثير من الدول ، وأن إنتاجية هذه " التكنولوجيا " والقيمة المضافة لها عالية جدا ، استطاعت هذه "التكنولوجيا " أن تجد حلولاً وعلاجاً لكثير من المشاكل والأمراض كما استطاعت أن تسهل الحياة فى كثير من الأحيان ، ولكنها ليست خيرا على طول الخط ، وإنما تحمل فى طياتها أخطارا يجب أن ننتبه إليها ؛ "فالتكنولوجيا " التى كان هدفها الأساسى هو اختصار الوقت نجدها اليوم قد ابتلعت الوقت ، اليوم الإنسان الذى تحيط به "التكنولوجيا" من كل جانب أصبح وقته موزعا فى التعامل مع هذه "التكنولوجيا " التى طمست الحد بين الحقيقة والخيال ، هذه " التكنولوجيا " مهدت لثقافة العنف وأثرت على التماسك العائلى والاجتماعى . . اليوم أفراد العائلة الواحدة يعيشون فى غربة وهم فى بيت واحد ، كل منهم فى حجرة ويمسك بجهاز ويتعامل مع أشياء منفردا ووحيداً ، وأقسى أنواع الغربة " هى الغربة المكانية التى يعيشها الانسان " .

الباب الثالث

الهوية والانتماء

« العرقية والوطنية والقومية »

الهوية والانتماء

العرقية والوطنية والقومية

تمهيد :

كل الدول فى العالم متعددة العرقية ، وقد تتعدد الأصول العرقية بشكل كبير ولأن كل مجموعة عرقية لا يمكنها أن تقيم دولة لأسباب واضحة تتعلق بحجمها وموقف الدول المحيطة بها وموقف الدول الكبرى إلى غير ذلك من الأسباب فإن الأمر انتهى بتقسيم المجموعات العرقية إلى أمة وقومية وأقلية وطنية وقبيلة .

والقومية والهوية ليست مجرد اتفاق بين مجموعة من البشر فى اللغة أو الدين أو الثقافة أو الأصل أو وجودهم المشترك على أرض واحدة ولا لأنهم يعيشون حياتهم المشتركة على هذه الأسس ، أو حتى على شعورهم بهذه الروابط المشتركة ، ولكن الإحساس بالانتماء يجب أن يرعى ، وأن ينمو حتى يترسخ كإحساس جماعى بالانتماء والهوية ، وتلعب المواقف المشتركة والكفاح المشترك ومعارك النضال دوراً هاما فى تغذية وترسيخ شعور الانتماء والولاء .

وإذا تطرقنا إلى تعريف القومية أو الهوية أو الوطنية فإننا نصادف مشاكل متعددة ؛ فاللغة المشتركة مثلاً قد لا تكون متاحة ، فهناك دول ذات قومية واحدة يتكلم شعبها أكثر من ثلاث لغات بالإضافة إلى عدد

كبير من اللهجات ، ولا يشترط أن يتخذ شعب واحد ديانة واحدة فكثيرا ما تتعدد الديانات داخل كيان وطني واحد كما يحدث في كل من الهند وباكستان ، وفيما يتعلق بالأصل العرقي فإن شعوباً كثيرة وأوطاناً متعددة تتعدد فيها الأصول العرقية بشكل واضح كما هو الحال في البوسنة والهرسك ، ومشكلة الأكراد في كل من العراق وتركيا وسوريا .

التعريف :

تعريف القومية أو الوطن بالشكل المعاصر تعريف قصير العمر ؛ فلقد كانت معايير الهوية والانتماء مرتبطة بكيانات أقل على مستوى قرية أو منطقة أو مقاطعة ، ولم يحدث إلا في القرن الثامن عشر في أوروبا بالذات أن بدأت الوطنية كمفهوم معاصر في الظهور، مرتبطة في الأصل بالملك أو الإمبراطور، ثم بدأ المفهوم السياسي والاقتصادي في تشكيل أبعاد القومية أو الوطنية ، وفي القرن التاسع عشر مع اتساع حجم التجارة العالمية أخذ البعد الاقتصادي جانباً هاماً من مفهوم الهوية الوطنية ، وارتبط إلى حد كبير بالمصالح الاقتصادية للدولة أو الأمة .

وفي أوائل القرن العشرين تنبأ عدد كبير من علماء الاجتماع أن العرقية والقومية ستفقد أهميتها مع الحداثة والتصنيع والاتجاه إلى

الفردية ، وأنها فى النهاية ستتلاشى كلية ، إلا أن ذلك لم يتحقق ، بل على العكس فأن العرقية والقومية تزايدت أهميتها السياسية بشكل مضطرد خصوصاً فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتعريف العرقية *Ethnicity* تعريف حديث ، ويقول " ناثان جليزر" *Nathan Glazer* : " إن التعريف ظهر أول مرة فى قاموس " أكسفورد " ١٩٧٢ منسوباً إلى عالم الاجتماع " دافيد رايسمان " *David Reisman* "، بينما كلمة العرقى *Ethnic* أقدم بكثير، وهى مستمدة من كلمة إغريقية *Ethnos* وهى تعنى الهمجى أو الوثنى ، واستعملت من منتصف القرن التاسع عشر وفى الولايات المتحدة بدءاً من الحرب العالمية الثانية جرى استعمالها تأدباً فى الإشارة إلى اليهود والإيطاليين والايرلنديين والذين كان ينظر إليهم على أنهم فى مرتبة أدنى ممن انحدروا من أصل إنجليزى ، ومن الملاحظ فى أوربا على سبيل المثال تزايد المطالبة من الأقليات الوطنية والتجمعات العرقية على إنشاء دول مستقلة حتى إن بعض المفكرين يتنبأون بأن أوربا فى سبيلها للتقسيم إلى عدد كبير من الدول قد يبلغ ألف دولة ، وبصرف النظر عن الاعتبارات التاريخية والعاطفية التى تفسر مثل هذا الاتجاه إلى التقسيم إلا أننا لا يمكن أن نستبعد أن يكون التقسيم رد فعل ضد مظاهر العولمة وزيادة تسلطها .

والعلاقة بين كلمة العرقية والقومية أو الوطنية علاقة معقدة مثل العلاقة التى تربط العرقية بالجنس أو السلالة .

ولكن الوطنية تتميز بأنها ذات محتوى ثقافى يربط بين أفرادها كما أن من معالمها المميزة ارتباطها بدولة وأرض ، والارتباط بين الهوية الثقافية والحدود السياسية أمر مميز للقومية ، بينما لا تصر الجماعات العرقية بالضرورة على هذا الارتباط بالنظام المؤسسى للدولة وحدودها .

نأتى إلى مفهوم الوطنية كارتباط مجموعة من البشر بأرض محدده يطلق عليها اسم الوطن ، قد يكون له رمز وعلم ، قد يكون له نشيد قومى وسلام وطنى إلى غير ذلك ، ولكن بصرف النظر عن الرموز فهناك ولاء وانتماء من كل هؤلاء للذين يعيشون على هذه الأرض للوطن ككيان تاريخى وجغرافى واجتماعى واقتصادى وسياسى ، وكلمة الوطنية بالإنجليزية هى "*Patriotism*" وتعنى حب أرض الآباء ، بما فى ذلك من إشارة واضحة إلى اعتبارات عاطفية وتاريخية .

الفصل الأول

الوطنية فى مصر

هل شعور المصريين بالوطنية يرجع إلى أقدم العصور ؟

هذا سؤال مهم ، هل كان هناك شعور حقيقى بالوطنية عند المصريين منذ فجر التاريخ ؟ والإجابة قاطعة نعم كان هناك شعور عميق بالوطنية عند المصريين القدماء .

فلقد كان المصريون القدماء يعتبرون أنفسهم وطنيين أصلا نشأوا وولدوا فى بلادهم وكانوا شعبا معتزا بنفسه .

وقسم المصريون العالم إلى الأرض السوداء (وادى النيل) الوطن والأرض الحمراء (الصحراء) الأرض الأجنبية ، واعتبروا أن وادى النيل هو وطنهم الأصلى ، أما ما يحيط به من الصحراء فهى ارض أجنبية .

ولقد كان المعلمون والمثقفون يتناقلون تاريخهم القومى بسبل شتى، فقد تضمن لوح مدرسى صغير من القرن السادس عشر قبل الميلاد موضوعاً تعليمياً ، درس صاحبه خلاله مرحلة من مراحل كفاح أجداده ضد الهكسوس وهى مرحلة صورت تصميم الفرعون " كامس بن سيقننرع " على

مواصلة الجهاد ضد الأعداء المحتلين حين مضى يعلنه على أهل حاشيته قائلا : " سوف أصارع العدو، وأبقر بطنه ، وقد نويت أن أحرر مصر، وأحطم العامو (أى الهكسوس) " ، وفى مخطوطة تعليمية أخرى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد كتب طالب يدعى " بنتاورة " تاريخا لبداية النزاع بين الفرعون المصرى " سيقننرع " وبين ملوك الهكسوس وكيف اشتد تلك النزاع وزادت حدته ، وروى كيف حاول ملك الهكسوس أن يتقى استعدادات المصريين ضده ، وكيف عمل " سيقننرع " على أن يستثير همم رجاله ليبدأوا الجهاد معه لتحرير بلادهم .

وإذا كنا نتحدث هنا عن عمق الشعور بالوطن لدى المصريين منذ أقدم العصور، فقد كان خير ما وُعد به ملاح تائه (فى قصة الملاح الغريق – من الأدب المصرى القديم) أن منقذه قال له : " ولسوف تملأ حضنك بأولادك وتقبل زوجتك ، وترى بيتك ثانية ، وأفضل من شىء آخر أن تصل إلى وطنك الذى كنت فيه بين اخوتك وأخواتك " .

وفى قصة سنوحى (أو سنوهى) التى كانت من أحب القصص إلى قلوب المصريين القدماء منذ الأسرة الثانية عشرة يرد وصف حاله فى الغربة ، وشوقه للعودة إلى وطنه مصر، ويتمنى بعد ذلك من الله أن يرأف به ، ويعيده إلى مصر، وأرسل " سنوحى إلى " سنوسرت " وزوجته يرجوهما ويستأذنهما فى المجىء إلى مصر، فجاءه رد الملك بما أدخل السرور على قلبه .

ومما هو جدير بالذكر أن " سنوحى " هذا شخصية حقيقية ، عاش أيام الملكين أمنمحات الأول ، وسنوسرت الأول (١٩٩١ – ١٩٣٤ ق.م) .

كل هذا يؤكد بشكل قاطع أن الوطنية كانت موجودة فى مصر من آلاف السنين ، وأن الشعور الوطنى كان مميزا للمصريين منذ فجر التاريخ .

كانت مصر باستمرار كيانا واحدا كأمة وكدولة . ومن النادر أن نجد -تاريخيا- مثلا آخر يشابه هذا النظام ، وكما يقول الأثرى الإنجليزى " سميث " ***Smith*** : " إنه ما من أمة كبيرة .. فى العالم قد توحدت توحدا كاملا تحت سيطرة حاكم واحد كمصر " .

أو كما يقول جمال حمدان فى "شخصية مصر" أن الاستمرارية المصرية لاتعنى التكرار "*Repetitive*"، وإنما تعنى التراكمية "*Cumulative*" وعلى حد تعبير " نيوبرى " *Newberry* أن مصر وثيقة من جلد الرق ، الإنجيل فيها مكتوب فوق هيرودوت ، وفوق ذلك القرآن وخلف ذلك لا زالت الكتابة الهيروغليفية مقروءة جلية

مقومات الوطنية فى مصر :

١- الجنس والعرقية :

لاشك أنه منذ فجر التاريخ فإن سكان مصر كانوا يتميزون فى ملامحهم بتوافر مجموعة من الصفات الجسدية والجنسية والملامح المميزة والتى تعطيهم طابعا مميزاً .

ويصرف النظر عن النظريات المختلفة فهناك حقيقتان أساسيتان وهما :

أولاً : أن المصريين القدماء شعب أصيل فى مصر *Autochthonous* ، ولم يفدوا من مكان آخر كما يقول " شانتر " *Chanter* .

ثانيا : أن احتمالات الاختلاط الهامة كانت محدودة للغاية ، وقلت بدرجة كبيرة منذ عهد الأسرات ، وأكثر الاحتمالات رجاحة هى أن المصريين كانوا من سلالة البحر الأبيض المتوسط طبقا لآخر دراسات علم الأجناس الحديثة .

كما تشير الأدلة المتوافرة أن هناك استمرارية جنسية ما بين سكان العصر الحجرى وما بين عصر ما قبل الأسرات وإلى عصر الأسرات .

وهكذا فمنذ فجر التاريخ برز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة متجانسة بقوة فى الملامح الجسمية .

ومن الطريف أن هذا الثبات *PERSISTENCE* لم يتحرك من آلاف السنين حتى إن ثمة تماثيل فرعونية من عصر الأهرامات حينما اكتشفت تعرف العمال والفلاحون الذين كانوا متواجدين وقت اكتشاف هذه التماثيل ، على أشباه لهم من بين الأفراد الذين لا يزالون يعيشون بينهم .

ويزيد هذه الاستمرارية ثباتاً أن مصر لم تعرف هجرات بشرية كبيرة حقيقة لقد تعرضت لثلاث غزوات رئيسية ، ولكن الهجرة تتخذ طريقا إلى المدن وإلى عمق الريف وتستقر فى قلب المجتمع ، بينما الغزو يتوقف عند المدن الرئيسية ولا يتغلغل إلى الداخل .

فالغزوتان الأوليان : فإن الهكسوس واليهود نكصوا على أعقابهم الأولى : دحرها أحمس ، وطاردها إلى خارج الحدود ، والثانية : عادت فى النزوح الكبير.

وأما الغزو العربى : فهم أبناء عمومة المصريين ، ومن نفس الجنس الحامى ، وقد امتزجوا بالشعب المصرى ، وفى الواقع العملى : كانت عملية زواج بين أقارب متقاربين .

٢ - الوحـــدة :

كانت الوحدة بين شطرى الوادى أملا مستمرا منذ فجر التاريخ ، وجرت عدة محاولات للوحدة ، بدأت إحداها فى الفترة من

[٤٢٠٠ إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد] كانت الدلتا فى هذا الوقت أقوى من الصعيد، لذلك كان ملوك الدلتا هم أول من فكر فى اتحاد مصر تحت سيطرة حاكم واحد، وتم توحيد مصر فى إطار هذه المحاولة وكانت العاصمة هى بلدة بوصير، وهى بلدة إله شرق الدلتا المسمى (أوزير عنزتى)، وربما يكون أول ملك لها هو " أوزير " وصورته العقائدية على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج للصعيد والدلتا.

ولكن المحاولة لم تستمر، وانقلب أهل الصعيد بزعامة أنصار معبوده (ست) وانقسمت البلاد إلى شطرين : فأصبح الوجه البحرى للإله (حور) والوجه القبلى للإله (ست).

وجرت المحاولة الثانية مرة أخرى حينما استطاعت مملكة الشمال إخضاع مملكة الجنوب وذلك بزعامة (أونو) ملك الشمال متخذة " عين شمس " عاصمة لها، وكانت شارة المملكة وشعارها قرص الشمس ناشرا جناحيه اللذين يرمزان إلى نصفى مصر. . الوجه البحرى والوجه القبلى.

ولكن مرة أخرى قامت ثورة دينية من الاشمونين فى مصر الوسطى وانفصلت المملكتان مرة أخرى، الأولى : فى الوجه البحرى وعاصمتها بوتو المعروفة الآن بتل الفراعين فى شمال دسوق، والثانية : فى الوجه القبلى وعاصمتها " نخن " والمعروفة الآن بالكوم الأحمر، ولكن رغم الانفصال فإنه من الملاحظ أن الإله (حور) بن (أوزير) ظل الإله الرسمى لكل من

الملكتين ، ثم أتت المحاولة الثالثة والأخيرة : على يد " مينا " موحد القطرين حاكم مصر العليا فى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد ، واستمرت مصر موحدة منذ هذا التاريخ .

وكذلك بدأ عصر الأسرات ، وقد واكب هذا التطور ظهور الكتابة الهيروغليفية مرتبطة بتسجيل حدث الوحدة القومية فى لوحة " نارمر" الشهيرة .

وكما بينا من قبل فإن المصريين ينحدرون بصفة عامة - طبقاً ووفقاً لدراسات علم الأجناس الحديثة - من سلالة البحر الأبيض المتوسط ، ويرى البعض أن المصريين الذين استوطنوا مصر ونشأوا وترعرعوا فى الفترة التى تسبق رحلة توحد القطرين كانوا ينتمون إلى الحاميين الشرقيين ، ويمثلون مجموعة بشرية متجانسة .

وعلى أية حال يندر أن توجد أمة تتوحد فى نشأة السلالة بهذا الشكل المتجانس .

٣- الديـــن :

كـان عـامل الدين عـاملا مـهما منـذ فجـر التـاريخ عنـد قدمـاء المصريين ؛ فقد آمنوا بوجود اله ، آمنوا بالبعث ، آمنوا أن الفرعون هو ظل الله فى الأرض، وأنه الكاهن الأكبر والرئيس الأعظم لدين الدولة الرسمى .

آمن المصريون بالحساب بعد البعث ، وقد يكون هذا من العوامل التى وحدت بين المصريين ، وعمقت من مشاعر الانتماء لديهم وأثرت على طباعهم وسلوكهم ؛ لأن الدين كأن يفسر لهم الكون بتعاليمه ويدعوته للخير وإدانته للشر وردعه عن ارتكاب المعاصى ويبشرهم بأنه لكل عمل حساب .

كان الدين . . كان الاستقرار . . كان التاريخ الموحد . . كانت العادات المصرية فى مجموعها تمثل عاملا هاما فى الاستقرار الداخلى والسلام الذاتى للمصريين فى معظم مراحل التاريخ ، ولذلك لم يعرف التاريخ المصرى ثورات ضخمة أو اتجاها للعنف أو القسوة ، أو نزعات إلى التطرف أو الإرهاب طوال تاريخه .

واتجه سلوك المصريين إلى البناء والتعمير ، فشيدوا المعابد والتماثيل والأهرامات ، ومهدوا الطرق وعمروا البلاد .

٤ - الإحساس المشترك بالخطر :

كانت مصر بفضل موقعها الاستراتيجى مطمعا للغزاة وللمغامرين الذين كانوا يعتبرون أرضها الغنية وموقعها الجغرافى الفريد ومناخها المناسب مغنما يستحق المغامرة من أجله ، وعلى الجانب الآخر فإنه كان فى مصر إحساس بالخطر الخارجى ، وكان هذا عاملاً مهماً فى توحيد الشعب والتضامن وشعور الجماعة الذى كان يصل ذروته عند احتمالات الخطر.

ولم تكن هذه الظاهرة (ظاهرة الإحساس بالخطر) رغم كل التضحيات التى تحملتها مصر ظاهرة مرضية ، بل إنه يمكن القول : إنها كانت ظاهرة صحية شحذت الوعى الوطنى ، وعظمت الإحساس واليقظة الوطنية .

واستبعدت فى نفس الوقت احتمالات الانغلاق على الذات، والانعزال عن العالم الخارجى ، بل إنه من السمات المميزة لمصر أنها من أقدم وأول الشعوب التى انفتحت على العالم الخارجى ، وأنها كانت موقع اتصال واحتكاك مع الثقافات المختلفة ، وأنها فى كثير من الأحيان كانت واحة يلجأ إليها كل الهاربين من الظلم والاضطهاد فى بلادهم ، أو المهاجرين من أوطان أو مجتمعات أخرى .

٥- الاستقرار والتجانس :

قامت الوسطية والتجانس ، والحضارة المستمرة والمستقرة على جنبات هذا الوادى لآلاف من السنين بتأثيراتها " الجينية " المنطقية عبر أجيال متعاقبة تأثرت بالعادات والسلوك الاجتماعى والأخلاقيات السامية، والبعد عن العنف والقسوة والالتزام والإيمان بالنظام وبالقدرة على التأمل وبالإيمان بالقوى الروحية والاعتقاد بالبعث والحساب ، وبالقدرة على الانفتاح على الخارج ، واستقبال الوافدين والأجانب والزوار، كانت هذه كلها ميزات شكلت استعدادا لهذا الشعب

لتقبل التغيرات العالمية ، وأن يكون عضوا نافعا فى المجتمع العالمى ليس قائما على السيطرة والهيمنة ، ولا على الاحتكار وفرض الإرادة ، ولكن من موقع المساواة والندية .

٦- اللغــة :

فلم تتغير اللغة فى مصر إلا مرتين : مرة من الهيروغليفية إلى القبطية ومرة من القبطية إلى العربية ، ولكن التغيير فى كل مرة كان عاما شاملا للشعب كله ، وانتقلت آلاف الكلمات من اللغة القديمة إلى اللغة اللاحقة ، وكانت اللغة فى كل مرة تحمل كثيرا من المفردات والكلمات من اللغة التى حلت محلها .

٧- الحيــاة الاقتصادية :

الحياة الاقتصادية كانت أيضا واحدة ، سواء كانت فى النشاط الاقتصادى القائم على الزراعة المنظمة وهو النمط الذى لم يحدث فيه تغيير على امتداد عدة آلاف من السنين ، سواء فى مواعيده أو أسلوبه أو طبيعته .

أساليب الزراعة : الرى - وارتباطه بالفيضان - طريقة البذر وفلاحة الأرض - عمليات الحصاد والجنى والتخزين - وأساليب العمل المرتبطة بكل منها .

لم تكن مصر فى تاريخها الطويل منغلقة على نفسها ، ولا متعصبة لذاتها ، ولا رافضة للاحتكاك الدولى ، ولكنها كانت معتزة بنفسها ، بهويتها بجذورها وبحضارتها ، ولكنها أيضا باستمرار كانت نقطة اتصال بالعالم الخارجى ، ولها استعداد كامل لاستقبال الأفراد والأفكار ، وكانت الوسطية والطيبة السائدة فى شعبها سبباً فى أنها كانت باستمرار مقصدا للزوار والسياح والمهاجرين والهاربين أحياناً من بلاد تشيع فيها القسوة والاضطهاد .

الفصل الثانى

مشروعية الوطنية
فى عصر العولمة أو « الكوكبية »

ثم نأتى إلى نقطة أساسية فى هذا البحث :

هل الحديث عن الوطنية أو القومية فى عصر العولمة عبث ؟ هل هى ردة تاريخية ؟ هل هى سباحة ضد التيار ؟ هل هى دعوة إلى مقاومة ثورة علمية كاسحة بما تشكله من إمكانات " تكنولوجية " هائلة وإمكانات اتصال فائقة ؟

أو هى دعوة إلى الانغلاق ؟ هل هى دعوة إلى الانكباب على الذات والتقوقع داخل حدود لم يعد لها نفس المدلول الذى كان سائدا فى عصور سابقة ؟ هل هى رجعية فى التفكير كما يحلو للبعض أن يسميها ؟ هل هى عدم واقعية فى تقدير الأمور كما يحلو للبعض الآخر أن يصفها ؟ أو هى دعوة جديدة بروح جديدة ؟

نحن نرى أن :

- الوطنية التزام ، والالتزام قيمة .
- الوطنية انتماء ، والانتماء مسئولية .
- الوطنية اعتزاز ، والاعتزاز أصالة .
- الوطنية ارتباط بالجذور ، والارتباط ملاذ ومصير .

الوطنية تشكل إطاراً للقيم الإنسانية ، الوطنية لا تشكل جدارا لسجن ولا حافة لخندق ، ولا حاجزا لمنفى ، إنما هى تشكل معبرا للالتقاء بالإنسانية كلها ، الوطنية سياج للحماية ، الحماية للقيم الإنسانية والأخلاقية ، والتطعيم ضد الضياع والتهميش واللامبالاة .

الوطنية انتماء وهدف ، وولاء لقيم ومبادئ ، وسياج يحمى الإنسان ولكنه سياج شفاف ونفاذ لا يحجب الضوء ولا يمنع دخول الهواء النقى ، ولايحجب الأفكار ، ولا يمنع الحوار ، ولا يحجب الاتصال بالبشر فى كل مكان .

الوطنية حب وتعاطف ، وليست تطرفاً أو كراهية ، حب للأرض والإنسان والعائلة والقيم والخير والجمال . إن التحلل من الارتباط بالأرض أو الجذور هو بداية انفراط عقد الانتماء ، لسلسلة من الارتباطات بالمكان والزمان ، بالمبادئ والإنسان ، بالتعاطف والتكافل ، وهو طريق له بداية ولا تبدو له نهاية إلا الغربة والوحشة والإحساس بالضياع .

الوطنية طعم واق ضد القوة الطاردة المركزية للعولمة ، ضد أخطار "القطيع الإلكترونى " الذى يستهدف فقط غزو الأسواق وتحقيق الربح بأى وسيلة وعلى أشلاء أى ضحايا .

الوطنية وجود للإنسان على أرض صلبة يتمسك فيها بجذوره وحضارته وتاريخه . . قيمه الإنسانية المعبرة عن الجمال والخير

والخلق .. تجاربه الناجحة .. نماذجه المشرقة التى تصبح قدوة للأجيال القادمة وللشعوب الأخرى .

الوطنية قاعدة للانطلاق إلى المستقبل ، والانفتاح على الغير ، وليست متاريس أو خنادق ، ولكنها معابر للالتقاء بالغير والخير.

- الوطنية ثقة بالنفس بلا غرور.
- الوطنية اعتزاز بالأرض والجذور بلا تعال ولا نفور.
- الوطنية ولاء وانتماء بلا انغلاق ولا رياء .
- الوطنية التزام وليست تعصبا .
- جذور وليست متاريس .
- استيعاب وذاكرة وليست عزلة أو تجاهل .

- اعتزاز بقيم وإنجازات وتضحيات من اجل الخير والغير.

- الوطنية ليست اعتداء على حقوق الآخرين مبنية على دعاوى باطلة أو أساطير زائفة .

الوطنية قاعدة انطلاق إلى المستقبل ، وليست ردة إلى الماضى .

الوطنية ليست حائط مبكى ، ولا لطما للخدود ، وإنما هى عمل ومسئولية وكفاح وفاعلية .

وإذا نظرنا إلى العالم من حولنا نجد أن الوطنية تلعب دوراً رئيسياً حتى فى الدول التى تقود العولمة وتستهين بالنزعات القومية والحركات الوطنية .

أمريكا القطب الأكبر فى عالمنا هذا : لا تتحرج أن يتكلم رؤساؤها عن المصالح الأمريكية العليا فى كل مناسبة ، ولا أن يصدر الكونجرس الأمريكى قانوناً يبيح للقوات الأمريكية أن تلاحق من يتعرضون للأمن القومى الأمريكى إلى داخل حدود الدول الأخرى .

ولا تتحرج أمريكا فى أن تضع شروطا لاستعمال بضاعتها وفرض منتجاتها ونشر ثقافتها .

وروسيا القطب الثانى :- والذى تراجع فى بداية التسعينات - فإنها برغم اعتناقها الماركسية اضطرت اضطراراً فى أثناء مقاومتها للغزو النازى فى الحرب العالمية الثانية إلى إثارة حافز الوطنية الروسية ، وإذكاء روح الوطنية والكرامة الروسية ، وكانت الوطنية وحدها - وليست الماركسية - هى القوة التى أوقفت الزحف النازى ، وأنقذت الوطن الروسى ، بل حينما تأزمت الأمور وحل الخطر لجأت روسيا الشيوعية التى يفترض أنها تستهين بكل الانتماءات إلا انتماءها إلى الماركسية ولا تعتمد إلا على البروليتاريا *Proletariat* أو الطبقة العاملة ، لجأت إلى الوطنية الروسية لإيقاف الخطر وإنقاذ الوطن .

والدول العظمى نفسها وهى تتغنى بمزايا العولمة وهى تفرض قوانين العولمة لا تتحرج عن التمسك بإعلاء مصالحها الوطنية على أى اعتبار آخر.

إننا نتفق مع الكثيرين على أن الوطنية لا يمكن أن تكون تعصباً أو انغلاقاً وأن الوطنية يجب ألا تكون تطرفاً أو إرهاباً ، وألا تكون غروراً واستعلاء ولا استهانة بالقيم الإنسانية لشعوب أخرى ، ولا يمكن أن تكون نفوراً من الآخرين .

ولا نتصور للحظة أن الوطنية يمكن أن تكون تصادما مع التقدم ولاوقوفاً ضد المعرفة والعلم والأخذ بالجديد المفيد والمستحدث النافع، ولسنا ندعو بأية حال إلى اصطناع مواجهة مع السوق العالمية الواحدة أو لاختلاق قطيعة مع التكتلات الاقتصادية الكبرى .

إننا ندعو إلى الانتماء إلى حدود أخلاقية بقدر احترامنا لحدودنا الجغرافية . . إننا ندعو إلى الالتزام بقيم إنسانية رفيعة وجذور حضارية نبيلة ، وليس فقط حدود جغرافية أو رموز شكلية أو تقاليد معيشية .

. . انفتاح على العالم بلا انبهار وبلا انكسار وبلا ارتماء فى أحضان الغير . . وطنية تشجع على تقدم علمى ، وعلى تنمية قوى ذاتية بضوابط أخلاقية وارتباط بالوطن بقيمه العريقة الإيجابية ، وفى الوقت

نفسه ارتباط وانفتاح على الإنسانية التى نحن جزء لا يتجزأ منها ومن تراثها .

.. ارتباط مبنى على التكامل والتراحم ، والتعاون المنزه عن الابتزاز أو الانتهازية ، والمترفع عن الجشع والطمع والاحتيال .

هل تعنى الوطنية في تقديرنا إنكارا للعولمة وآثارها ؟ وتجاهلاً " للقطيع الإلكترونى " وسطوته ؟ لا فذلك معناه أننا ندفن رؤوسنا فى الرمال .

وهل يعنى اعترافنا بأن العولمة قدر مكتوب أنه استسلام وانهزامية ؟ لا .. إنه فقط تسليم بأمر واقع ، ومواجهة لحقيقة علمية .

إن إنكار العولمة أو التناطح معها بلا وعى هو تخلف فى التفكير ونقص فى التدبير ، وإنكار للواقع ، وموقف سلبى لا يلغى واقعا ولا يضيف جديداً .

التسليم بالعولمة أولى الخطوات للتعامل الإيجابى والعلمى معها وللتخطيط السليم لمواجهتها ، وللعمل الشاق الذى يتعين أن نقوم به لنصبح قادرين على التعامل معها ، والتعبئة القومية التى يتعين حشدها لبناء قوتنا الذاتية ، والتسلح بالقدرات والخبرات اللازمة لعصر جديد ، وللتعامل مع الواقع الجديد بآليات مناسبة ، وبِعُدةٍ أحسنًا إعدادها من علم ومعرفة وتكنولوجيا متقدمة .. هى أدوات العصر وأسلحة المستقبل .

مواجهة الخطر تقتضى دراسته ، وعدم الاستهانة بخطورته وبالعمل العلمى الجاد ، وبالجهد الوطنى الدؤوب ، وبالتعبئة القومية المخلصة .

أما رفع الشعارات التى تنكر أو تشجب أو تكتفى بالرفض والمقاطعة فهى مقومات مناسبة ترشحنا أن نكون أبطالاً للفرص الضائعة ، وتحجز لنا مكاناً بارزاً فى متاهات التاريخ ، وأساطير معارك طواحين الهواء .!!

نريد آفاقاً وليس مجرد حدود ، تقدما علميا بضوابط أخلاقية وإنسانية . . ارتباطاً بالوطن . . بقيمه الإيجابية وتراثه العريق . . ارتباطا بالإنسان الذى نعيش معه أو عشنا معه فى الماضى . . مجتمعا مبنيا على التكافل والتراحم المنزه عن الانعزال والتجاهل لأى إنسان فى كل زمان ومكان .

نريد أن ندخل المنافسة فى ثورة الاتصالات مسلحين بجهاز للمناعة ضد " الإيدز الجديد " مرض فقدان المناعة . . ضد طوفان المعلومات . . عولمة بلا هوان . . وانطلاقة للمستقبل مدعمة بالأمان . . تميز وتفرد بلا طغيان . . حب للوطن والأسرة يشع على الإنسانية كلها فى غير عبادة للذات ، أو أنانية بغيضة أو تعال على الغير . . حب بلا سيطرة . . بلا " شوفينية " ، حب يطبق ما يدعو إليه الإسلام "أحب لغيرك ما تحب لنفسك" ، نريد أن ندخل العولمة لنكسب تقدماً وعلماً ولكننا نرفض أن نخسر أنفسنا .

نريد أن نستفيد من النهضة العلمية و" التكنولوجية " لتحسين نوعية الحياة ولكن لا نرضى أن يكون هذا على حساب إنسانيتنا وقيمنا الروحية ، ولا فقداً منا للرموز الجميلة فى حياتنا ، ولا ضياعاً للتراحم ، وإحساساً بالأمل وبالطمأنينة نريد رمزاً نلتف حوله ، وأملاً يوحدنا ، وشيئا يعزز التماسك بيننا ، لا يمكن أن يكون التقدم أحادياً أوخطياً فى " التكنولوجيا " وحدها ، نريد أن نتقدم فى "التكنولوجيا " ولكن لابد أن نعظم الجانب الانسانى فى البشر.

هناك أناس تقدموا ولكنهم خسروا أنفسهم ، تم هذا تحت شعارات مختلفة الماركسية مرة . . والعولمة مرة . . والتطرف مرة . . اختلفت المسالك ولكن النهاية كانت واحدة . . خسر الانسان نفسه وآدميته .

لا أنسى قط مشهد الميدان الأحمر فى "موسكو" ساعة الغروب . . فى أحد شهور الصيف . . فى مطلع الستينات . . آلاف من الروس ينظرون إلى قبر لينين . . تحجرت مآقيهم ، وتسمرت عيونهم ، وخلت من البريق الانسانى أحسست في وجه هؤلاء المساكين بشعور الضياع ؛ كانوا يبحثون دون جدوى عن رمز، أو عن أمل أو معنى لحياتهم . . قطعت لهم الماركسية بأنه " لا دين ولا إله ولا بعث ولا حساب " ، تسمرت وجوههم على شمس الغروب ، وعلى قبر لينين ، لعلهم يجدون ما يبحثون عنه بلا جدوى .

ولا أنسى مشهد " شارلى شابلن " فى فيلمه الشهير " الأزمنة الحديثة " " Modern Times " وهو يتحول إلى آلة . . مجرد ترس فى وحش معدنى ضخم . . لا قلب له ولا عاطفة على خط إنتاج يتساوى فيه الجماد بالإنسان .

نريد تقدماً لا يؤخرنا عن الاتصال بالآخرين ، نريد حداثة لا تؤدى بنا إلى فقد التواصل مع الأسرة والمجتمع والأمة .

نريد " تكنولوجيا " خادمة لنا ، توفر من وقتنا ما كان يضيع فى أعمال يمكن الاستغناء عنها باستعمال آلة معينة ، تسهل لنا حياة أفضل ولكنها فى نفس الوقت تمكننا من أن نخلو أحياناً إلى أنفسنا ، وأن نفكر فى معنى أو رمز لا تحرمنا من القدرة على التأمل ، ومن ضرورة الوقفة أحياناً مع النفس والقدرة على أن نحاسب أنفسنا عند الضرورة .

نريد تقدما لمجتمع أفضل لا يضعف من قدرتنا على الاستمتاع بالحياة فى تذوق الجمال . . فى الانبهار بالطبيعة . . فى الشعور بدفء العلاقات الإنسانية الحميمة . . الفرحة ببسمة طفل . . الانبهار بتفتح زهرة . . السعادة بنسمة هواء . . الارتواء برشفه ماء . .

نريد تقدما اقتصاديا مبنيا على القدرة " التكنولوجية " الهائلة وقدرة المعلومات الهادرة ، نريد أن نقتحم المجالات المختلفة فى الاقتصاد العالمى الجديد ، نريد زيادة فى القيمة المضافة للإنتاج

القومى، نريد زيادة فى الدخل القومى الإجمالى ، ولكننا فى نفس الوقت لا نرضى بان يكون هذا على حساب ضياع الوفاق الوطنى أو ضياع الرضى القومى العام .

نريد تقدما " تكنولوجيا " واقتصاديا يفتح لنا أسواقاً جديدة ، ويرفع مستوى الحياة لأغلبية أفراد الوطن ، ولكننا نرفض أن يكون ذلك على حساب فقدان عدد كبير من المواطنين لفرص عمل شريفة ، ونرفض أن يكون على حساب تهميش شريحة كبيرة من غير القادرين ، وإحلال الآلات بدلا منهم .

لا نريد أن يكون هذا على حساب حلول وهمية لمشاكل صادفت مجتمعات أخرى ؛ فأوكلت حلها إلى كيانات هلامية ومؤسسات خيالية لم تستطع أن تنهض بالمهام المطلوبة ، وعلى حد تعبير "جيرمى ريفكين" *Jeremy Rifkin* فى كتابه الشهير " نهاية العمل " *End Of Work* «إن العالم مطالب اليوم بان تقوم الحكومات ومعها القطاع الخاص بدعم القطاع الثالث فى المجتمع القائم على المجتمع المدنى الذى يوفر فرص عمل قد يكون بعضها تطوعيا للقيام بخدمات أساسية للمجتمع فى مجالات البيئة والنظافة ورعاية العجزة والمسنين وفى مجالات الرعاية الاجتماعية والصحة والتعليم ، وإلا فالخيار الثانى أمامها أن توجه نفس الدعم، وربما أكثر منه بكثير لإنشاء السجون الكافية لاستيعاب المجرمين والخارجين عن القانون من

المهمشين وغير القادرين واليائسين والذين أحسوا بغربة مكانية موحشة حولتهم إلى أعداء للمجتمع ولأنفسهم » .

إننا ندعو إلى عدم إغفال الهوية والانتماء ، وعلى التركيز على الجانب الوطنى ، مع تسليمنا بضرورة عدم إغفال متطلبات المشاركة فى العولمة .

إن ذلك ينبع من موقف مسئول نرى فيه العالم كوحدة متكاملة يهمنا ما يحدث فيه ، ونتعاطف مع البشر فى كل مكان ، ونعتبر أنفسنا مسئولين عن شقاء أو عذاب أو معاناة أى إنسان فى أى مكان وزمان ، كما أننا فى نفس الوقت نتحمل مسئولية تجاه الأجيال القادمة التى يتعين علينا - ويحق لهم علينا - أن نضمن لهم عالما آمنا يتمتع ببيئة صالحة ، وأمن واستقرار وألا نورثهم أحقاداً يدفعون فاتورتها ، وتدميراً للبيئة يفقدون حياتهم بسببها .

لا نريد ردود الأفعال التى يمكن للعولمة أن تتسبب فيها فى زيادة لروح التعصب ونزعات التطرف ، والرغبة فى الانتقام والغربة المكانية التى يمكن أن تؤدى إلى هجرة زمنية، أو إلى عداء للمجتمع الذى لم يفكر فيهم ، ولم يعبأ بآمالهم ومتطلباتهم فحولهم إلى أقليات شاردة، وشراذم مهمشة، أوعصابات يائسة ، وقد يمتلكون بفضل الثورة " التكنولوجية " -التى ضاعوا بسببها- إمكانات أسلحة تدمير شاملة يمكن أن تكون معولا لهدم المعبد على كل من فيه .

الفصل الثالث

القومية فى عصر الكيانات الكبيرة

ونأتى إلى نقطة القومية فالقومية .. تقوم أساسا على عناصر أساسية تدخل فيها اللغة والدين والعرقية والتاريخ المشترك والكفاح الواحد والمصالح المتداخلة والأمل المشترك فى المستقبل .

فإذا كانت هناك كيانات فى مناطق مختلفة من العالم قد استطاعت – فى مرحلة العولمة – أن تقيم تكتلات كبيرة لها تأثيرها فى الاقتصاد الدولى والسياسة العالمية ؛ فدول الوحدة الأوربية التى جمعت دولاً من مختلف الجنسيات والأصول العرقية والأديان واللغات والخلفية التاريخية ، وأصبح لها الآن وضع مرموق فى المجال الدولى ، خاصة إذا ما دخلت فيها دول الاتحاد السوفيتى السابق بإمكاناتها الاقتصادية وثرواتها الطبيعية ، وعلمائها فى العلوم الأساسية ، وأراضيها الشاسعة أو تجمع " النافتا " فى أمريكا ، أو محاولة إنشاء التعاون الاقتصادى فى شرق آسيا ، وبالرغم من أن هذه التجمعات لم تصل إلى تحقيق ما يمكن أن نطلق عليه " قومية " بالمعنى الذى تعودنا على فهمه فى المراحل الماضية ، إلا إنها مؤشر لنا على أن الدول العربية بما يجمعها من عناصر الوحدة

الطبيعية .. من أصل عرقى واحد ، ولغة واحدة ، ودين غالب، وتاريخ وكفاح مشترك، ومصالح متكاملة، فلا شك أنها قادرة أكثر من غيرها على أن تخطو خطوات تحقق نوعاً من التعاون والتكامل والتخطيط يمهد لإمكانات أكبر وأوثق فى المستقبل .

ولقد ظلت الوحدة العربية أملا بعيداً ، أو على الأقل لا يبدو له تطبيق قريب وذلك بفعل صراعات وأحقاد ومرارة تراكمت على مر العقود والسنين وصلت فى بعض الأحيان إلى حد حمل السلاح ، والحروب بين الإخوة والأشقاء .

إن تحقيق الأمل نتيجة هذه التراكمات سيحتاج إلى وقت طويل ، وجهد كبير ولكنى أؤمن أن الدول العربية تملك بحمد الله مقدرات وثروات وإمكانات ترشحها لتكون كياناً قوياً كبيراً له تأثيره فى المجال الدولى ؛ فقد حباها الله بمفكرين وعلماء وأدباء ، ومنحها ثروات طبيعية كبيرة ، وأودعها مدخرات وموارد هائلة وتربط بين جوانبها كل مقومات الوحدة الطبيعية .

" وما لا يدرك كله لا يترك كله " ، ولذلك فإنه فى تقديرى يتعين أن تكثف الجهود بمزيد من التعاون والتنسيق والعمل المشترك فى المجالات الآتية :

المجـــال الأول : الرعايـة المتكاملـة للطفولـة ؛ فالطفولـة هـى الـثروة

البشـرية الواعـدة والعنايـة المتكاملـة بـها اسـتثمار مضمـون ،

لعـائد جـدواه الاقتصاديـة مؤكـدة ، وتأثيرهـا علـى المـدى

الطويل بـالغ القـوة والخطـورة .

المجـال الثـانى : التعـاون فى مجـال التعليـم : إن الأمـة العربيـة تملـك

من خبراتـها ومـن مراكزهـا العلميـة وإمكاناتـها الماديـة ومـن

تاريخـها الـذى يشـهد بالسـبق فـى العلـم والمعرفـة والثقافـة

والتعليـم مـا يمكنـها مـن أن تقيـم تعاونـاً وثيقـاً فـى مجـال

التعليـم للأجيـال القادمـة ، وإن كـانت الخلافـات الحاليـة

تعرقـل التعـاون فـى مجـالات أخـرى لتعـارض المصـالح التـى

تتعلـق بـالجيل الحـالى فإنـه لا يجـوز لنـا ، ولا مـبرر عندنـا لأن

نختلـف فـى مصـالح الأجيـال القادمـة ، وذلـك فيمـا يتعلـق

بالطفولـة والتعليـم .

ألم يحـن الوقـت لأن نحـول عملتنـا الحاليـة وثرواتنـا

المتآكلـة فـى بـاطن الأرض إلى العملـة الجديـدة الواعـدة

" العلـم والمعرفـة " ؟؟!!

أليس مؤشراً لنا ما تعرضت له أمم ودول من أزمات اقتصادية ومضاريات مالية أطاحت بالمدخرات ، وأتت على الاحتياطيات ؟؟!!

ألا يشير لنا التقدم العلمي الذى بدأ يقلل من أهمية الموارد الطبيعية أو الطاقة التقليدية (الطاقة المخزونة فى باطن الأرض) إلى أن نخصص جزءاً من ثرواتنا المتآكلة وعملتنا المتدهورة بتحويلها إلى العملة الجديدة الواعدة وإلى استثمار مضمون العائد ؟؟

وأذكر هنا قول الشاعر العربي :

طمع ألقى على الغرب اللثاما ∴ فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

المجال الثالث : السوق العربية المشتركة : إن حجم التجارة فى الأمة العربية لا يستهان به ؛ فالصناعات التى أقيمت فى دول العالم المختلفة لتسوَّق فى أسواقنا المحلية ضخمة ومتشعبة . إن تحقيق سوق عربية مشتركة فاعلة ونشطة ، يشكل بنية أساسية قوية لتعاون أكبر فى مجالات أرحب ، وإذا ما وضعنا فى الحسبان البعد الزمنى الذى يشكله الاهتمام

بالطفولة والتعليم ، فإن الأمل يزداد فى أن تتمكن أمتنا العربية من تحقيق مستقبل ، ندعو الله أن يكون قريباً فى شكلٍ أقوى من أشكال الوحدة ، وأن تقيم كياناً له وزنه فى المجال العالمى .

البَابُ الرابع

الأمل والعمل

الأمــل والعمــل

تمهيد :

نأتى إلى السؤال الأهم ماذا نفعل ؟

لقد تبين لنا أن العولمة قدر مكتوب ، وأننا بالفعل قد دخلنا فى نظام العولمة ولقد أشرنا بالتفصيل أن مقتضيات العولمة لا تفرض علينا، ولا يجوز أن تجعلنا نفقد أهم مقوماتنا من الحضارة، والثقافة، والجذور، والهوية ، وأننا لا نملك أن نفقد أنفسنا لنكسب مادياً ، هذا إذا ما نجحنا فى الكسب المادى بدون ميزتنا النسبية ، ودروس التاريخ التى لا شك أننا قد استوعبناها فى ضمير هذه الأمة واستودعناها فى " جينات " نتوارثها جيلا بعد جيل .

ولا نملك أن نخضع لمتطلبات العولمة ونفقد هويتنا ، هذا لأن مال الدنيا كله لا يمكن أن يعوضنا عن خلاصة تجارب وتضحيات مئات من الأجيال التى عاشت وماتت على هذه الأرض الطيبة .

ولا يبقى إلا أن نصل إلى صيغة توفق بين اعتبارات العولمة ومتطلباتها وتربطنا بقافلة الألفية الثالثة ومسيرة الإنسانية المتقدمة وتحافظ لنا فى نفس الوقت على الميزة النسبية التى يتمتع بها شعبنا . التماسك الاجتماعى . . الانتماء . . والهوية والجذور وروح الأسرة .

تلك صفات وسمات لا نعتقد أنها تتعارض مع متطلبات العولمة إنما هى أمور تخصنا فى المقام الأول ، ولا تشكل عدوانا على حقوق أحد ولا تنتقص من إمكانات أو جهد أحد .

بل إنها دعائم تقوينا على النهوض بمسئولياتنا العالمية ، وتدعم إمكاناتنا لنكون عضوا نافعا فى النظام العالمى الجديد من موقع المتقدمين وموقع القادرين .

إننا فى مصر نرى بحكم موقعنا الاستراتيجى الهام ، وبحكم حضارتنا التى تمتد فى أعماق التاريخ إلى أكثر من ٧٠٠٠ عام ، وبحكم تواصل إنسانى له صفات مميزة عبر آلاف السنين ، نستطيع أن نلعب دورا بناءً فى النظام العالمى الجديد . . دورا يحفظ التوازن بين مقتضيات التقدم "التكنولوجى " والمعرفى ومتطلبات التنمية الاقتصادية ، وبين المميزات الإنسانية التى تحافظ على آدمية البشر ، وعلى التوازن بين القدرات المادية والاعتبارات الروحية والإنسانية .

وليس هناك من سبيل إلا أن نتعاون جميعا فى صياغة عقل الأمة وإعداد الأجيال الجديدة لتحمل هذه الرسالة ، وإحياء هذه المهمة التاريخية ليس لصالح هذه الأمة فقط . ومصالحها مشروعة ، ويجب أن تكون مصونة وإنما لصالح البشرية كلها التى نؤمن تماما أن من صالحها أن يكون فى دائرة صناع القرار العالمى من يذكّر إخواننا فى الإنسانية باعتبارات

وضرورات استراتيجية لبقاء الجنس البشرى ، ولإعمار هذا الكون ورفاهيته ولمصلحة الأجيال المقبلة التى لها علينا حق واجب الأداء فى الحفاظ على حقهم فى الحياة ، ونصيبهم العادل من هذه الدنيا .

الفصل الأول

التعليم والمستقبل

ويأتى على رأس المؤسسات المسئولة المؤسسة التعليمية التى وإن نادى البعض بأنها هى الأخرى فى سبيلها إلى الزوال ، وأن التعليم فى إطار الثورة الإلكترونية وفى إطار ثورة الاتصالات والتقدم "التكنولوجى " الهائل سيقل تأثيره وتتهمش قيمته مع الاكتشافات الحديثة ، ومع تسليمنا بأن هناك أشكالاً وأساليب جديدة للتعليم وأن هناك اكتشافات كبيرة تؤدى إلى تغيير طرق التعليم ، إلا أن المنظمة أو المؤسسة التعليمية وإن تغير دورها ، وتطور شكلها ، وتنوعت أساليبها ستظل بالنسبة لظروفنا الخاصة حاملة وحامية للمسئولية التاريخية التى لا يمكن أن ينوب فى تحملها أحد غيرها .

١- مدرسة المستقبل : -

لكننا فى حاجة إلى شكل جديد ونوع جديد ، نحن فى حاجة إلى مدرسة جديدة .. مدرسة المستقبل .. مدرسة بلا أسوار .. ليس بالمعنى المادى للأسوار ولكنها مدرسة متصلة عضويا بالمجتمع ، وبما حولها من مؤسسات مرتبطة بحياة الناس متصلة بقواعد الإنتاج ، متصلة بنبض الرأى العام متصلة بمؤسسات الثقافة والإعلام .. مدرسة متصلة بمؤسسات الحكم

المحلى .. مدرسة تضرب بأنشطتها فى أعماق المجتمع ، وتجند كل من يستطيع أن يدلى بدلوه أو يمد يده بالمساعدة فى إعادة صياغة عقل الأمة .. مدرسة لها امتداد أفقى إلى المصالح .. إلى المعامل .. إلى مراكز الأبحاث .. إلى خطوط الإنتاج .. إلى مواقع الآثار .. إلى المتاحف .. إلى الحقول .. إلى الغابات .. إلى الشواطئ .. إلى كل موقع .. مؤسسة لها امتداد رأسى : تمتد قرون استشعارها إلى التجارب الإنسانية والتربوية فى كل دول العالم ، وتمتد ببصرها وبصيرتها إلى المستقبل البعيد بكل متغيراته وكل تطوراته وكل احتمالاته وتدرس فيها الحياة بكل متغيراتها وبكل أشكالها وبكل أنشطتها .. مدرسة يتلاشى فيها الحائط الذى يفصل فيها الدراسة عن الواقع .. التعليم عن الحياة العملية .. المناهج عن متطلبات المجتمع .. مدرسة متطورة فى أهدافها ومحتواها وأساليبها .

٢ - معلم الألفية الثالثة :

نحن محتاجون إلى معلم الألفية الثالثة .. معلم يتغير دوره تغيرا جذريا من مالك للحقيقة المطلقة .. من خريج مؤسسة كانت دائما تهدف إلى تخريج موظفين وعاملين يعملون فى إطار نظم جامدة وخطوط طولية Linear Systems يلتزمون بقواعد جامدة ، وقوانين صارمة، ولا يخرجون عن النص والروتين .. إلى مدرسين يقومون بوظيفة رجال أعمال ومديرى

مشاريع ومحللين للمشاكل .. ووسطاء استراتيجيين بين المدرسة والمجتمع .. ومحفزين لأبنائهم ، يستنطقون ويستنهضون أحسن ما فيهم من قدرات وهمم ، ويكتشفون فيهم مواطن النبوغ والعبقرية والموهبة ، ويقومون بدور الوسيط النشط فى عملية التعليم والبحث عن المعرفة التى يتحمل مسئوليتها أساسا أبناؤهم الطلاب .. معلمين مهمتهم الأساسية تزويد أبنائهم بمفاتيح المعرفة ، وقواعد الأسلوب العلمى فى الدراسة وطرق البحث السليمة والحديثة .

مهمتهم الأساسية هى حشد طاقات طلابهم، واستثارة حماسهم وإثارة فضولهم ، ومرافقتهم وإرشادهم فى سياحة عقلية عبر كل الحواجز والسدود وفوق كل المشاكل والعقبات داخل وخارج المدرسة فى إطار الحاضر وآفاقه الرحبة ، وفى آفاق المستقبل واحتمالاته الهائلة .. رحلة استكشاف ورصد .. استكشاف للكون وللنفس والغد ، ورصد للمعرفة والحقيقة والفرص .

معلم له من خبراته التربوية، وثقافته المتنوعة، ومن قاعدته المعرفية العريضة، ومن إمكاناته الفكرية المرتفعة، ومن خبراته السياسية العريضة ومن قدرته على التخيل، وعلى الحلم المسئول ، والتصور القائم على الإحساس بالمتغيرات قادر على مشاركة أبنائه فى استكمال

استعدادهم للتعامل مع مستقبل مختلف كلية عن حاضر عايشناه أو ماض عشناه .

نحن نعد جيلا جديدا سيتعامل مع الأنظمة غير الثابتة ، مع الأنظمة العشوائية ، والمواقف التى لم نتعرض لها من قبل وقد يستحيل علينا أحيانا أن نتصور إمكان حدوثها ، ولا بديل أمامنا عن أن نسلح أبناءنا بالخبرات والقدرات التى تمكنهم من التعامل الذكى مع هذه المواقف .

نحن لا نملك وصفات جاهزة لمعالجة مواقف لم نصادفها ولم نعايشها ولكننا قادرون على تزويدهم بمفاتيح المعرفة ، وأساليب البحث ، وبمهارات الاتصال ، والمهارات الحياتية والاتصالية المتميزة ، وبقدرات اتخاذ القرار السليم . . وباختصار بكل معدات ومستلزمات رحلة المستقبل الذى هو واقع غير واقعنا وعالم غير عالمنا .

علينا أن ندربهم على العمل المشترك بروح الفريق الذى لا يلغى فى نفس الوقت الطموحات الفردية، ولا يهمل القدرات المتميزة والمواهب النادرة كما نسلحهم بلغة العصر، وآليات التقدم ، ومهارات " التكنولوجيا " المتقدمة علينا أن نرسخ فيهم قيم الولاء والانتماء والمسئولية والمشاركة والهوية والجذور . . والانفتاح على الغير ، وعلى المستقبل والاعتزاز بالنفس وبالذات .

علينا أن نعدهم للوصول إلى حلول عملية وعلمية للمشاكل التى يتعين عليهم أن يواجهوها فى مستقبل لم تتحدد بعد معالمه ، ولا نعرف ما يخبئه القدر لهم من مهام ، إن ذلك يقتضى فى إعداد المعلم تدريباً مختلفاً وإعداداً غير مسبوق ، وانفتاحا على كل التجارب العالمية ، وتنوعاً فى الخبرات والقدرات التى يتسلحون بها سواء فى إعدادهم فى كليات التربية أو معاهد المعلمين أو ما يستجد فى تدريب المعلم الذى هو قدرهم أن يستمر معهم مدى الحياة .

نحتاج إلى معلمين قادرين على الاكتشاف . . اكتشاف المواهب.. اكتشاف الإبداع . . رعاية أصحاب الحالات الخاصة سواء كانوا مبدعين أو موهوبين أو أصحاب ظروف خاصة قسا عليهم القدر فى مجالات معينة وحرمهم من قدرات يتمتع بها غيرهم ولكنهم يملكون هم أيضا مواهب من نوع آخر تنتظر المعلم الموهوب الذى يكتشفها ، ويحول بها هذا الطفل من مشكلة إلى قاطرة للتقدم وطاقة للإبداع .

نحتاج إلى معلمين لديهم قرون استشعار تتحسس التغير فى كل مكان وتكتشف الفرص والإمكانات فى كل ميدان ، ولديهم القدرة والبصيرة على استشراف المستقبل وتوقع تطوراته واحتمالاته . . معلم لديه القدرة على تثقيف نفسه ، وزيادة معارفه لمواجهة كل هذه المتغيرات .

٣- مناهج غير تقليدية :

ليكون سيرنا ونحن مع بداية الألفية الثالثة سيراً بصيراً بالأهداف ولنكون أكثر ثقة وأشد طمأنينة ، ولنساير تطور الألفية الثالثة الذى فرض مطالب على التعليم ، تؤكد شمول النظر إلى جوانبه واستمراريتها تأكيداً على العلاقة المتبادلة بين أجزاء العملية التعليمية لتحقيق التنمية فى القوى البشرية التى هى أغلى أنواع الاستثمارات التى نهدف إليها ، فنحن نحتاج إلى مناهج جديدة فمناهجنا مع كل التطور الذى يحدث فيها تتباعد المسافة بينها وبين المتطلبات القادمة كلما دخلنا فى الألفية الثالثة.

المعرفة الكلية بدلاً من الاختزال :

ولقد آن الأوان أن يحدث تغير جذرى فى كل مناهجنا ، لم يعد التقسيم الاختزالى الذى تعودنا عليه قروناً عديدة والذى يقسم المعرفة - وهى أصلاً كل لا يتجزأ - قسمناها إلى فروع وعلوم مختلفة ، وأقسام جامدة، وشعب متناثرة فضاعت فى كثير من الأحيان النظرة الكلية وطمست المجالات البينية بين مختلف جوانب المعرفة ؛ فوحدة المعرفة حقيقة لا مراء فيها ، وجودة التعلم ضرورة لا بديل عنها وارتباط العلوم ببعضها ضرورة " استراتيجية " لا يمكن التغاضى عنها

مفاتيح المعرفة وطرق البحث :

ولقد آن الأوان ونحن فى اطار تقدم معرفى هائل ، تتضاعف فيه المعرفة مرة كل ١٨ شهراً على الأقل ، ويبدو أن هذه الفترة على قصرها فى سبيلها إلى الانكماش ، وأن نركز على مفاتيح المعرفة وقدرات البحث العلمى ، وقدرات الوصول إلى المعلومات والبحث عنها وتنظيمها وتوظيفها وتفاعل مع المعرفة على أنها كل لا يتجزأ ، والتعمق فى العلاقات البينية بين كل مجالات المعرفة وتنمية القدرة لدى أبنائنا فى الربط بين الأشياء والتوصل إلى العلاقات التى تربط بين المجالات المختلفة والقدرة على التحليل والاستنباط .

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن الانسان سيغير من مهنته عدة مرات وسيكون عليه أن ينتقل بمرونة وسرعة من تخصص إلى تخصص مختلف تماما فلا بديل أمامنا إلا قاعدة عريضة من المعرفة الإنسانية بتكاملها وترابطها وتداخلها وتشابكها والعلاقات البينية فيها .

مناهج مرتبطة بحاجات المجتمع الحقيقية :

لابد أن ترتبط المناهج بحاجات المجتمع ، ولا يحق لنا ولا يليق بنا أن نجبر أبناءنا على الانضمام إلى تعليم يمضون فيه سنوات طويلة ، ثم ينسون غالبية ما يتعلمون بمجرد انتهائهم من كتابة إجاباتهم فى أوراق

الامتحان ، أو تخرجهم من مرحلة تعليمية معينة ، أو ذهابهم إلى الحياة العملية ، ولا يمكن أن نهدر وقت وجهد جيل ، وهو بالنسبة لهم أثمن ما يملكون ، وبالنسبة لنا أغلى ما نستثمر للمستقبل ، لا يمكن إلا أن نقدم لهم تعليما ينفقون فيه وقتهم فيما يعود عليهم بمعرفة مستديمة عميقة وخبرة تلازمهم مدى الحياة ، وقدرة لا تنقص منها الأيام ولا يطويها النسيان .

وتلك مشكلة يتعين على الخبراء والأساتذة أن يتناولوها بفكر جديد وبأسلوب غير تقليدى ، وأن ينفتح المجال تماماً لمفاتيح المعرفة بدلاً من كم معرفى ، وطرق للبحث بديلة عن حفظ نتائج البحث لمناهج العمل بدلاً من تفاصيل العمليات النمطية التى تتغير من مجال إلى مجال .

المهارات الحياتية والاتصالية :

نحن فى عالم تتعاظم فيه اعتبارات العولمة ، وتتزايد فيه مشاركة ومسئولية القطاع الخاص ، وتتعاظم فيه ضرورات الاتصال والتفاوض وإدارة الأعمال ، ويجب أن تنهض مناهجنا بمسئولية تمكين أبنائنا من التعامل الذكى والكفء مع المتطلبات الحقيقية والمتطورة للمجتمع .

التعليم والأنشطة والتجربة العملية :

لابد أن تكون المناهج عملية . . الممارسة فيها هى الأصل والتجريب فيها هو الأساس ، والمشاركة فى البحث عن المعلومة وتنظيمها وتوظيفها وتطبيقها هى الجوهر الحقيقى للعملية التعليمية.

ولابد أن تكون المناهج مرتبطة " بتكنولوجيا " العصر أكاديمياً وعملياً وبالواقع والمجتمع وبحياة الناس اليومية ومشاكلهم وآمالهم دراسة ومشاهدة وتعايشاً ومشاركة وتطويراً .

مكون أساسى للمستقبل :

لابد أن تكون المناهج فى إطار عالمى وبمعايير عالمية ، ولابد أن تكون فى إطار مستقبلى ، وأن يكون مكون المستقبل ركناً ومحوراً أساسياً فى كل أنشطة ومناهج التعليم فى شكل مؤسسى ومنهجى ، وبصورة يومية فى كل نواحى المعرفة ؛ فلم يعد مقبولاً أو كافياً أن تكون المناهج انعكاساً أميناً لما يدور حولنا الآن ، ولا تعبيراً صادقاً فقط عن متطلبات المجتمع الذى نعيش فيه ولكنها يجب أن تكون أيضاً استشرافاً واستعداداً وتهيئة لعالم لم نعشه، ولكن يتعين على أولادنا أن يعيشوا فيه .

ويمكن أن يكون مكون المستقبل ، إما فى شكل مجموعة عمل فى كل مدرسة وفى المراكز البحثية للتعليم ، أو فى شكل جزء مخصص للمستقبل فى كل منهج تعليمى فى مختلف العلوم أو فى شكل عدد من المدارس التجريبية تطبق فيها تجارب رائدة ذات بعد مستقبلى .

حق الاختيار :

لابد أن تراعى المناهج حق الجيل الجديد فى الاختيار؛ فنحن لا نتعامل مع إنتاج نمطى ، وإنما نتعامل مع بشر لهم اهتماماتهم ولهم

مميزاتهم ، وهناك فروق جوهرية بينهم ، ويقدر اختلاف بصمة الأصابع والبصمة " الجينية " يوجد أيضا اختلاف فى تنظيم عقل كل بشر ، وتباين فى طباع الأطفال وإمكاناتهم واهتماماتهم ، وليس من العدل ولا من حسن التخطيط أن يجرب أسلوب الاستنساخ فى التعليم ؛ فلسنا بصدد قوالب جامدة ، أو نسخ مكررة ، وإنما التحدى الحقيقى فى أن نكتشف وأن نساعد كل طفل على أن يكتشف نفسه وإمكاناته ونوعية الموهبة التى يتميز بها إن بداخل كل طفل كنزاً خفياً ومسئولية المجتمع أن يكتشف هذا الكنز وأن يظهر وينمى الموهبة الكامنة وأفضل أنواع التعليم هو التعليم الذى يخاطب حاجة دفينة فى الإنسان ، والذى يشبع حاجاته ورغبته الملحة فى المعرفة ، والذى يثير حماسه ودهشته ، ذلك هو التعليم الذى يؤدى إلى معرفة وخبرات " ديناميكية " مستديمة وعميقة .

لابد أن تتسع دائرة الاختيار فى المناهج لأطفالنا ، إن ذلك فضلا عن أنه تدريب عملى على الديمقراطية وحق الاختيار فإنه خليق بأن يساعدنا على كشف المواهب والميزات النسبية فى كل طفل ، وفى خلق مناخ أفضل للإبداع .

لابد من المرونة فى أساليب التعليم . . تنوع فى طبيعة المناهج.. وطرق التدريس . . مرونة فى الجدول الدراسى . . وفى طبيعة الوقت الكافى لكل طفل إن الحقائق العلمية تقول إن

٩٠٪ من الأطفال إذا ما أعطوا التعليم الملائم لكل منهم والوقت الكافى لكل واحد فيهم استطاعوا جميعا أن يصلوا إلى مرحلة التميز "*Mastery Learning*".

إن نظام القولبة والنمطية الشديدة يجب أن يتغير، لابد من رؤية جديدة على مستوى المؤسسة التعليمية والمدرسة والفصل تتيح قدرا كبيرا من المرونة وتشبع حاجات متباينة مختلفة فى مراحل التعليم.

٤- التعليم للتميز والتميز للجميع :

لابد أن يتغير هدف التعليم من تعليم للجميع وهو مسألة لا خيار لنا فيها ولا فضل فيها لأحد على أحد، وإنما هى ضرورة اجتماعية وتربوية تؤثر على أمننا القومى وعلى قدرتنا على التقدم، إلا أنها أيضاً ليست كافية، وأصبح لا بديل أمامنا إلا أن نصر على التعليم المتميز الذى يكفل مستوى عالياً وعالمياً لنوعية الخبرات والقدرات التى يتسلح بها أبناؤنا، ثم يكون هذا التعليم المتميز خطوة لتحقيق التميز للجميع، فلا تستطيع مصر ولا تستطيع الأمة العربية أن تدخل السباق العالمى بجزء أو شريحة من ثروتها البشرية، وهى التى تشكل قدرتها التنافسية؛ ذلك أن السبق فى المنافسة العالمية أصبح لمحصلة جهد كل الشعب أو مجموع جهد كل أفراد أى دولة. ولقوتها النسبية المتمثلة فى جودة منتجاتها وروعة أدائها وارتفاع إنتاجيتها الذى هو محصلة أداء قومى وليس أداء فردى أو أداء أقلية، وحاصل خبرة المجتمع ورصيد قوته

العلمية هو حاصل جمع قدرات أفراده مجتمعين ، وقدرتهم متحدين ، وإمكاناتهم متماسكين متعاونين .

ولا مناص أمامنا ونحن ندخل عصر الإنتاج كثيف المعرفة الذى تتحدد فيه المجالات الحاكمة فى صناعات وأنشطة مبنية على "تكنولوجيات" قوى العقل ويرتفع فيها مكون المعرفة إلى أقصى حد وتحتاج خطوط الإنتاج فيها على مختلف نوعياتها إلى عناصر على أعلى مستوى تعليمى متميز.

وبمقدار تحقيقنا لمبدأ التميز للجميع بمقدار ما نستطيع تدعيم أمننا القومى وقدرتنا التنافسية ، وان ندعم قدرتنا على السبق فى السوق الدولية وان نحقق لامتنا مكانة تليق بماضيها العريق ومستقبلها المستحق ، ونحقق توازننا فى العلاقات الدولية .

إن التعليم للتميز والتميز للجميع ، أيضا بالنسبة للعولمة ضرورة حيوية فطبيعة الإنتاج كثيف المعرفة ، وطبيعة المنتج فى الاقتصاد العولى تتطلب سوقاً عالمياً واسعة ، تشكل القاعدة العريضة فيها شريحة من المستهلكين على مستوى تعليمى مرتفع ومتميز.

أولا لكى يكونوا قادرين على استعمال هذه المنتجات المصنعة على أساس تكنولوجيات العقل المتطورة **Brain Power Technologies**.

فضلا عن أن طبيعة هذه المنتجات تتطلب قدرة شرائية عالية لا تتوافر إلا لأصحاب التعليم المتميز الذى يهيئ لهم وضعا اقتصاديا مرتفعا . إن تحقيق التميز للجميع ضرورة اقتصادية لسوق عالمية واعدة واستثمار ذو جدوى اقتصادية مؤكدة .

٥- الموهوبون :

وفى إطار المنافسة العالمية الضارية تصبح الموهبة عملة دولية واعدة وميزة نسبية تنافسية حاسمة ، ونحن حين نبحث عن صيغة جديدة تتيح لنا أن نبحر فى بحار العولمة المتلاطمة وأمواجها الهادرة ، لابد أن ندعم سفينة الوطن بمقاومات الملاحة الآمنة ، والقوة المحركة الواعدة .

إن الموهوبين يشكلون دائما قاطرة للتقدم ، وقوة دافعة ومحفزة للانطلاق وقدوة للآخرين للاجتهاد والإتقان . . إن حوالى ١٪ من تعداد أى شعب يصنفون فى عداد النوابغ ، وما يقرب من ١٠٪ إلى ١٥٪ يعتبرون فى إطار الموهوبين ولكنى أؤمن أن داخل كل إنسان حتى لو كان معوقا موهبة دفينة منحها الله له ونحن فى حاجة إلى من يكتشفها ويرعاها وينميها ، ويحول صاحبها من عبء إلى فرصة وبذلك تضيف إلى الرصيد الوطنى شريحة عريضة ومؤثرة من قوة الإبداع .

وقضية الموهوبين لازالت قضية خلافية فى كثير من أنحاء العالم ، تتنوع فيها طرق اكتشافهم ، والتعامل معهم وتعليمهم ، وهناك أربعة اتجاهات هى:

الاتجاه الأول : التجميع " *Grouping* "

وفيها يتم تجميع الموهوبين فى مدارس خاصة ، ويتم تدريس منهج خاص لهم ، وميزة هذا الأسلوب أنه يسهل طرق التدريس لأطفال متقاربين فى القدرات العقلية والإمكانات .

ولكن التطبيق العملى أثبت أن حماس هؤلاء الموهوبين يفتر بعد فترة إذ أنهم يفتقدون إحساسهم بالتميز ، وبالتالى رغبتهم فى تقدير واعتراف المجتمع بهم، فبدأ يفتر حماسهم ، كما ظهر أيضا أنهم بفصلهم عن زملائهم يفتقدون القدرة العملية على التعامل مع غالبية الناس فى المجتمع ، ويخلق فيهم إحساساً بالعزلة هذا بالإضافة إلى أن ذلك يحرم الغالبية من الأطفال من قاطرة حقيقية للتقدم وقوة دافعة للاقتداء بهم واللحاق بهم كما يثير هذا الأسلوب شكوكاً حول مدى ديمقراطيته وتعارضه مع مبدأ تكافؤ الفرص .

الاتجاه الثانى : الإسراع " *Acceleration* " :

ويتيح هذا الأسلوب مرونة زمنية فى التعلم تسمح بدخول الأطفال إلى مراحل التعليم المختلفة فى سن أصغر من زملائهم وكذلك الانتهاء من التعليم فى كل مرحلة فى مدة زمنية أقصر.

وقد لوحظ أن هذا الأسلوب يصلح للطلبة المتفوقين دراسياً ، ولكنه لايفيد بقية الموهوبين ؛ فالتفوق الدراسى هو أحد المعايير المبيّنة للموهبة ولكنه ليس المؤشر الوحيد .

كما لوحظ أن هذا الأسلوب يصلح فى المرحلة الإعدادية والثانوية بينما لا يصلح فى المرحلة الابتدائية ؛ لأنه يشكل عبئاً فى هذه المرحلة المبكرة على الأطفال ، ويحرمهم من حقهم فى الاستمتاع بمرحلة الطفولة .

الاتجاه الثالث : الإثراء " *Enrichment* " :

ويعتمد على وجود مواد إثرائية فى نفس المنهج يدرسها الطالب الموهوب إلى جانب المقرر العادى ، وميزة هذا الأسلوب أنها تتيح للطالب الموهوب أن يدرس جنباً إلى جنب مع زملائه دون عزل أو تفرقة ، ولكنه يحتاج إلى مرونة فى المناهج ، وطرق التدريس والجدول الدراسى ، وإلى تدريب متميز للمعلمين الذين سيقومون بالتدريس بهذا الأسلوب .

الاتجاه الرابع : برامج متخصصة "*Special Programs*" :

ويحتاج هذا الأسلوب إلى تصميم برامج خاصة للموهوبين تدرس لهم فى حصص إضافية ، أو نهاية اليوم الدراسى ، أو فى عطلة نهاية الأسبوع أو فى جزء من العطلة الصيفية ، سواء كان ذلك فى نفس مدارسهم أو فى مراكز متخصصة ، إلى جانب برامج أخرى خاصة بإرشاد

الآباء والأمهات للمساهمة فى تنمية قدراتهم ، كما تفرض أيضاً تدريباً ومستوى عالياً للمعلمين فى هذا الإطار.

ونأتى إلى نقطة محورية فى هذا السياق : فلقد ظهرت بين الحين والحين دعاوى ونظريات تحاول أن تخلق تناقضاً بين جودة التعليم وتميزه وبين كفالة العدالة والمساواة فى الفرص التعليمية، وتعتمد هذه الدعاوى أساساً على فرضية استحالة تدبير حجم الاعتمادات التى تحقق التميز للجميع .

ويطرح القائمون على هذا الرأى حلاً توفيقياً يدعو إلى إتاحة نوع متميز للتعليم لمن يستطيعون تدبير نفقاته ، ولا يفوت أصحاب هذا الرأى تغليف هذه الدعوة القائمة على التمييز والتفرقة وإهدار تكافؤ الفرص ، بأنه ستخصص نسبة للموهوبين غير القادرين للتمتع بهذه النوعية المتميزة للتعليم .

ويهمنى هنا أن أبين أن هذه دعوة ظاهرها رحمة وباطنها عذاب، ولأنها لن تصلح إلا فى تكريس التميز للقادرين ، وتعميق الشرخ الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء ، وتقويض السلام الاجتماعى الذى هو فى صالح القادرين قبل المهمشين .

وبالإضافة إلى ذلك فإن فى هذا الاقتراح تجاهلاً واضحاً لمتطلبات مواجهة العولمة بشريحة عريضة من المتميزين تستطيع أن تشكل لنا ميزة تنافسية فى السوق العالمية، وإن قصر التميز على قلة قادرة فيه تهميش .

خطير لقدرتنا التنافسية ، وإهدار مخل بالرصيد الوطني للمعرفة في عصر تمثل فيه المعرفة الثروة الحقيقية للأمة .

إن العالم لن يقبل منا - في المنافسة الدولية - شهادات عجز ، أو فترات سماح ، أو أعذاراً اجتماعية ، ولن يجود علينا بميزات إضافية أو استثنائية ولن يعفينا أو يتجاوزلنا عن أية معايير عالمية ؛ فالمنطق الوحيد السائد هو " البقاء للأصلح " و " السبق للأجود " و " الغلبة للأكفأ والأكثر ابتكارا " .

وأخيرا فإني على يقين بأن الدولة التي استطاعت - بقيادة رئيس مستنير حريص على البعد الاجتماعي وهو الرئيس مبارك - أن ترفع ميزانية التعليم من ٦٦٠ مليون جنيه سنة ١٩٨١ إلى [١٧،٤ مليار جنيه] سنة ١٩٩٩ لقادرة على أن تدبر تكلفة إعداد الأمة في مواجهة تحديات العولمة ، وان شمّاعة الإمكانات أصبحت لغة عفا عليها الزمن .

٦ - أصحاب الظروف الخاصة :

إن رعاية أصحاب الظروف الخاصة ، والأخذ بيدهم ، واستثمار كل طاقاتهم والتعرف على مواطن الموهبة التي يمكن أن تكون متوافرة لديهم رغم حرمانهم من بعض القدرات الأخرى ، وتسليحهم بالخبرات والقدرات المناسبة لهم وتدعيم إمكاناتهم للحاق بمسيرة العمل

المنتج فى المجتمع ضرورة مستقبلية لا يجب أن يصرفنا عنها أى اعتبار.

إن أصحاب الظروف الخاصة يشكلون شريحة غير قليلة فى المجتمع وهم أيضاً جزء من رصيدنا القومى ، فإذا إعتبرناهم معوقين يمثلون بالنسبة لنا عبئاً ومشكلة فان ذلك ينقص من قدرتنا التنافسية فى المنافسة العالمية.

أما إذا نظرنا إليهم كجزء من المجتمع ، وجزء من القوى العاملة - إذا ما أحسن تعليمهم وتدريبهم ، وأنهم أخوان لنا فى الإنسانية وفى الوطن ، لهم علينا وعلى الوطن حقوق واجبة الأداء - فانهم حينئذ يصبحون قوة مضافة فى الجهد الوطنى الخلاق ، ويصبحون أيضاً عنواناً لمجتمع يسود فيه قيم التكافل والتراحم فى مواجهة الاعتبارات المادية التى تتمشى مع مصالح العولمة ، فان ذلك بالطبع يقتضى نظرة إنسانية وسياسية واقتصادية جديدة إلى أصحاب الظروف الخاصة بفلسفة غير تقليدية ، وأن تخطط لهم برامج مدروسة بعناية وعلى أسس علمية ، وأن تُعدَّ لهم مناهج مناسبة ومعلمون أكفاء، وظروف دراسية وتدريبية ومعيشية مناسبة تمكنهم من اللحاق بركب التقدم وقافلة العمل ، ولا يجوز أن تقف فى سبيلنا فى هذا المضمار حجج بالية أو اعتبارات مادية .

٧- الديمقراطية :

لابد - فى إطار مواجهة العولمة- من تعميق إطار المشاركة والديمقراطية وهو شعار العصر، ولابد من تعميق مناخ ديموقراطى

داخل المؤسسة التعليمية يسمح بالخلاف فى الرأى ، والرأى والرأى الآخر، ويشجع على الحوار، ويدعو إلى ممارسة النقد والنقد الذاتى سواء على مستوى المؤسسة التعليمية كلها أو على مستوى المدرسة ، فان ذلك من شأنه أن يخلق مناخاً مناسباً للإبداع والموهبة .

لابد من تعميق الديمقراطية فى مناهجنا وفى مدارسنا ، ولقد نجحنا فعلاً فى إدخال كثير من المفاهيم الديمقراطية فى مختلف المناهج الدراسية. . كحقوق الانسان ، وحقوق الطفل ، وعدم التفرقة بسبب العنصر أو الجنس أو الدين ، وإعلاء مكانة المرأة ، والتسامح والحوار.

كما أعدنا إلى المدرسة جمعيات المناظرات ، وشجعنا مجالس الآباء والبرلمان المدرسى، بالإضافة إلى الحرص على توفير حقوق الانسان داخل المؤسسة التعليمية بنبذ العنف، وضرورة الاحترام المتبادل بين الطلبة والمعلمين ومنع العقاب البدنى تماماً فى المؤسسة التعليمية، كما أنه قد تم فى الفترة الماضية استغلال شبكة وزارة التربية والتعليم (*Video Conference*) فى إقامة اجتماعات اعتبارية يشارك فيها الآلاف من المعلمين والمديرين والآباء والطلبة وممثلين من نقابة المعلمين ليشاركوا جميعاً فى حوار واسع بناء على فترات قصيرة منتظمة ، وتسود فى هذه الاجتماعات الصراحة والديمقراطية والحوار الحر وممارسة النقد والنقد الذاتى ، وإفساح المجال للمعارضة البناءة .

فإن ذلك من شأنه خلق جو ديمقراطى حقيقى داخل المؤسسة التعليمية لابد أن يشع على مناخ المدرسة ، ويصل إلى داخل الفصول، الأمر الذى يسمح للأطفال والطلاب بالتعبير عن آرائهم ، ويكفل لهم حرية الاختلاف ، ويمكنهم من التعبير عن ذاتهم ، ويخلق مجالا خصبا لرعاية الإبداع والقدرة على الحوار كقيمة .

بالإضافة إلى ذلك فإن تفعيل دور مجالس الآباء ، وإعطاء هذه المجالس سلطة فعلية بالمشاركة فى السياسة التعليمية ، وإبداء الرأى فى حل المشاكل على مستوى المدرسة ، وإتاحة الفرصة للمجتمع المدنى ممثلا للجمعيات غير الحكومية للمشاركة فى الأنشطة المدرسية ، وفى دعم التعليم ، وفى إبداء الرأى فى نوعية التطوير ، كل ذلك يؤدى إلى ترسيخ جو ديمقراطى لاشك سيؤدى إلى إعداد جيل قادر على ممارسة الديمقراطية بعد أن تدربوا عليها فعلا وممارسة على مستوى المدرسة . إن ذلك يعد تأهيلا عمليا للأجيال القادمة على تحمل المسئولية فى كافة مواقع العمل الوطنى والاعتزاز بحقوقهم ، والحرص على أداء واجبهم فى المجتمع . . جيل حريص على المشاركة الحقيقية لتحمل المسئولية ومراعاة حقوقها وواجباتها . . جيل قادر على العمل بروح الفريق فى إطار جماعى . . جيل مؤمن بحقه وحق الآخرين . . وتلك ضمانة أساسية نرى أنها ضرورية لحماية الوطن من تحديات العولمة وتدعيم أمنه القومى .

الفصل الثانى

الثقافة

ونحن – كما سبق أن بينا – علينا مسئولية تاريخية فى هذا المضمار؛ فمصر سبقت الحضارة الإنسانية بآلاف السنين ، وكان لنا دور مرموق فى نشر الثقافة والتنوير فى ربوع العالم ، ولا يليق فى عصر العلم والمعلومات ألا تلعب مصر دوراً مأمولاً ومرتقباً فى إعطاء صورة جديدة ، وتوازن مطلوب ، وتحقيق نموذج يمكن أن يغرى الآخرين ، وأن يكون مجالا لنشر قيم التسامح والتكافل والتعايش والسلام المبنى على الحق والعدل ، إلى الدول الأخرى والمجتمعات المختلفة .

ولعل ما حدث فى " سياتل " فى الشهر الماضى من مصادمات ومن لجوء إلى العنف وإلى مظاهرات حدثت فى عقر دار القطب الأكبر للعولمة كان نذيرا يقول للقوى المفتونة " بالقطيع الإلكترونى " ، ولكل الشرائح المتسممة " بالتكنولوجيا " الفائقة ولكل أنصار العولمة المنتشين بقدرتها الساحقة: " إن هذا إنذار يجب أن يستوعبوه ، وهو يبين بوضوح أن القوى المهمشة ، وأن الشرائح غير القادرة ، وأن الدول النامية التى أهملت مصالحها ونهبت مواردها وألغيت عمليا طموحاتها وآمالها لازالت قادرة على ردود الأفعال ، وردود الأفعال متنوعة ومتباينة فى مداها وخطورتها " .

ولعل ما حدث فى " سياتل " درس يفيد الآخرين ، ويبين لهم أن القطيع الإلكترونى " ذا الألف ذراع - مهما بلغت قوته ومهما وصلت قدرته بحكم ما أحدثه أو ما صاحبه من تقدم هائل - قد أعطى الفرصة أيضاً للمهمشين وللمطحونين وا لمقهورين أن يعبروا عن إحساسهم بالظلم ، وعن شعورهم بالمرارة ، وعن قدرتهم على الرفض والاحتجاج .

وإذا كان ما حدث فى " سياتل " هو مجرد مصادمات مع الشرطة أو القوات الفيدرالية فان فى الجعبة الكثير ، وانه فى إطار الثورة " التكنولوجية " الهائلة يمكن أن تتحول هذه المظاهرات المحدودة الأثر إلى ردود أفعال ذات طبيعة مختلفة تماما قد تطيح بأحلام " القطيع الإلكترونى " وتستطيع أن تدمر مصالحه العليا ، بل وقد تصل إلى إلحاق الدمار الشامل والكامل بدول كثيرة بل والبشرية كلها . ذلك درس التاريخ الذى يجب أن نستوعبه ، وأن نعد العدة لكى لا يكون الدرس القادم أكثر قسوة وأمحق أثراً .

التعامل مع ثقافة العولمة :

من المهم أيضا أن نتبين بوضوح أن العولمة ولو أنها نظام اقتصادى فى المقام الأول ، سياسى اجتماعى فى المقام الثانى ، إلا إنها بلا شك تحمل ثقافة جديدة بصرف النظر عن انطباق المفهوم العلمى

أو الأخلاقى للثقافة على الغزو الفكرى ، والطوفان المعلوماتى ، والرموز التى تشيعها وتنشرها العولمة بكل وسائل الاتصال الحديثة فائقة القدرة ، ووسائل الإعلام فائقة السيطرة بما فيها من سينما وتلفزيون وإذاعة .

وكلها تبشر بثقافة جديدة .

البعض يطلق عليها ثقافة " القطيع الإلكترونى " ، والبعض الآخر يطلق عليها ثقافة عالم " ماك " نسبة إلى سلسلة ماكدونالد الغذائية الشهيرة ، والبعض ينسبها صراحة إلى الثقافة الأمريكية .

ولكن تبقى الحقيقة المجردة أن هناك أرضية مشتركة واضحة المعالم لهذه الثقافة الجديدة .

طبيعة ثقافة العولمة :

أولا : أنها ثقافة تمجد الاستهلاك ، هدفها الرئيسى خلق أسواق جديدة ، وإطلاق شهوات الاستهلاك إلى أقصى عنان لها ، ولازالت أهم أهداف المجتمع الرأسمالى هو إقامة وتطوير حالة عدم الرضى المستمرة عن المنتجات الموجودة حاليا حتى تتحقق حالة من الطلب المستمر والجديد على منتجات جديدة او نماذج مستحدثة ذلك أن هناك نظرية اقتصادية لها مؤيدون كثيرون ترى أن زيادة الاستهلاك محرك قوى لزيادة الإنتاج وتنشيط الاقتصاد ويطلق اليابانيون على هذا التكالب الاستهلاكى

والرغبة فى الشراء - بصرف النظر عن إشباع الحاجات الحقيقية - اسم " شيندوجو" Chindogu ويتمثل فى عشرات من الأجهزة والآلات والسلع موجودة فى كل منزل تكاد لا تستعمل إطلاقا .

ثانيا : أنها ثقافة تمهد للعنف

ولقد سبق أن تكلمنا عن ظاهرة ثقافة العنف Military Nintendo Complex ودورها فى إقامة ثقافة جديدة تبشر بنشأة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب حياة ، وكظاهرة عادية وطبيعية .

ثالثا : إنها ثقافة تمجد الفردية والأنانية

رابعا : إنها ثقافة مادية بحتة ، لا مجال فيها لروحانيات أو عواطف ولا مساحة فيها للمشاعر الإنسانية ، ولا للعلاقات الاجتماعية القائمة على التعاطف والتكافل والاهتمام بالآخرين .

بل إنها ثقافة تروج لتمجيد الربح ، وسحق المنافسين ، وتؤله المال وتلغى كل ما عداه من قيم .. إنها ثقافة تشكل عالما يجعل من الشح والبخل فضيلة .

خامسا : أنها ثقافة تستهين بكثير من القيم المجتمعية .. أنها لا تقيم وزنا لهوية أو انتماء ، ولا تهتم بحقوق المواطنة ، ولا بفرص العمل، ولا باعتبارات البيئة ، وأحيانا تعتبر هذه المفاهيم عقبات يجب إزاحتها .

إنـها ثقافـة لا تقيـم وزنـا للمجتمـع المدنـى ، ولا للحقـوق الديمقراطية للمواطنـين .

إنها ثقافة تشجع على الانتهازية والجشع والوصول إلى الأهداف بأى وسيلة .

إن مهمة مواجهة الغزو الثقافى للعولمة مهمة قومية ، ولكنـها فـى غاية الصعوبة نتيجة لثورة الاتصالات الهائلة ، وللتقدم التكنولوجى الفائق والذى بفضله أصبحت قدرة أجهزة الإعلام وأدوات نشر الثقافة الجديدة كاسحة فى كثير من الأحيان .

أسلوب المواجهة :

وكما بينا من قبل فإن فكرة العزل غير مطروحة ، كما أن مهمة فرز المعلومات تكاد تكون مستحيلة ، وذلك بسبب طوفان المعلومات والرموز والأفكار التى تصبها مؤسسات العولمة بغير كلل ولا ملل .

بالإضافة إلى ذلك فإن تعدد الرسائل وتنوع الوسائل يحاصر الإنسان من كل اتجاه فى عصر السماوات المفتوحة ، والحدود النفاذة وفى ظل انهيار حواجز الزمان والمكان .

إن المعلومات كما يقول " بنجامين باربر " *B enjamin Barber* تشكل الذهب الأسود لعالم " ماك " *McWorld* ومن يملك أدوات البث والإرسال يملك إملاء نوع المحتوى فى كل الأحوال .

إن صناعة الوسائل السمعية والبصرية . . وهى ثانى أكبر الصناعات فى الولايات المتحدة على سبيل المثال بعد صناعة الطيران والفضاء يبلغ حجم تصديرها لأوربا وحدها [٣,٧ بليون دولار] سنة ١٩٩٢ وذلك يفسر لماذا أصر الفرنسيون - فى تحد واضح لاتفاق حرية التجارة - على رفض إدماج البرامج السمعية والبصرية فى إطار اتفاقية الجات .

لقد أصبحت السينما محوراً أساسياً فى التجارة العالمية بعد أن كانت مجرد كماليات ، وتتصدر الأفلام الأمريكية السوق الدولية أكثر من تصدرها لأى مجال آخر، وتلعب هوليود دور الراوى أو القصاص الذى كان أحد الأعمدة الرئيسية للتراث الشعبى فى الماضى .

وأما أفلام " الفيديو " وبرامج التليفزيون فأصبحت الضيف الذى يقتحم عقر الدار دون تردد أو استئذان .

إن صناعة الترفيه والمعلومات والأفلام - وهى الآن صناعة مركبة ومتكاملة - هى قلب عالم " ماك " *McWorld* ، وهى تملك من أدوات التكامل والتعاون ما يشكل فى الواقع طريقة مهذبة للدلالة على السيطرة الكاملة ، وهى فى التطبيق العملى تحقق - بالإضافة إلى ذلك - رقابة محكمة على ما عداها ، وليست فقط سيادة مطلقة .

المسئوليات والآليات :

أن مسئولية مواجهة هذا الواقع الخطير تقع على عدة مؤسسات :

أولها المؤسسة التعليمية : التى يتعين عليها أن تقوى فى النشء الجديد عوامل المناعة والمقاومة والقدرة على الفرز والاختيار العاقل .

كما أن عليها أن تعزز الشعور بالانتماء والولاء للوطن والاعتزاز بجذوره وقيمه ، ثم إن عليها أن تعطى للأجيال القادمة بديلا مقنعاً للثقافة الوافدة .

إن التربية الدينية السمحة - التى تدعو للخلق الرفيع والسلوك القويم والعقيدة المستنيرة والوسطية المحببة والتعاون والإخاء والتكامل والتراحم ونبذ العنف والقسوة والتطرف والتنطع والانغلاق والتعصب - تشكل قوة كبيرة فى تحقيق الوقاية والمناعة ؛ فهى قادرة على تدعيم الجانب الروحى فى الإنسان ، وخلق بنية أساسية من التربية القويمة.

ثم إن التربية القومية القويمة قادرة على تعزيز الولاء والانتماء والاعتزاز بالوطن وجذوره ، وتلعب دراسة التاريخ من منظور متطور دوراً هاماً فى هذا الصدد .

يجب أن تكون دراسة التاريخ وصفاً أميناً وعلمياً لحركة شعب ولتجارب أمة ، وتحليلاً رصيناً للأسباب التى أدت إلى الأحداث والنتائج التى ترتبت على الوقائع .

كما أن دراسة سير الأبطال والقادة ، وتأصيل الدور الإيجابى الذى بذلوه من أجل وطنهم ، والتضحيات التى قدموها من أجل شعوبهم ، والدروس المستفادة من أحداث النصر والهزيمة ، والتعرف على أثار أجدادهم ، والمعالم التاريخية التى تركتها الأجيال السالفة ، يشكل للجيل الجديد القدوة

الحسنة ، ويقوى لديهم الاعتزاز بتراثهم ، ويسلحهم برصيد من الخبرة والمعرفة الإنسانية المفيدة وكل ذلك يجب أن يكون فى سياق يعزز قيم العمل والتضحية والمثابرة والعطاء والعلم والصبر والصدق والرحمة وقيمة التكافل والتراحم .

إن هذا كله من شأنه أن يقوى جهاز المناعة لدى أبنائنا من نعومة أظافرهم ، كما أن تنمية قدرة التحليل والتفكير العلمى والنقدى بتعليم متميز من شأنه أن يسلح الأجيال القادمة بالقدرة على فرز المعلومات ، وعلى التفرقة بين الغث والسمين ، ويعزز من إمكاناتهم على رفض ما لا يتفق مع عقيدتهم أو ثقافتهم أو أخلاقياتهم، وفى الوقت نفسه لا يحرمهم من الاستفادة من المعلومات والأفكار التى تنفعهم ، ومن العلم الذى يربطهم بالتقدم والمستقبل نحن فى حاجة إلى أن نتقن لغة الألفية الثالثة دون أن ننزلق إلى استعمال تعبيرات هابطة أو ألفاظ نابية .

وتلعب مؤسسات الإعلام والثقافة والمؤسسات المدنية أدواراً لا تقل أهمية فى دعم الأهداف القومية التى شرحناها بالتفصيل ؛ فهى تتكامل فى أدوارها وتتناغم فى رسالتها وتتعاون فى مهمتها .

ما لا يذكره المنهج المدرسى تكمله الرسالة الثقافية والإعلامية وما لا تدركه الدراسة المنهجية تعالجه الأنشطة الثقافية والإعلامية

وترسخه الخبرات العلمية فى متحف أو معرض .. فى ندوة .. أو فى رحاب مسجد أو كنيسة.

وما لا تشمله المقررات الدراسية تتضمنه الدراسة غير المنهجية فى المكتبة ، وبرامج الكمبيوتر، وفى العروض والمعارض ، وفى فيلم سينمائى وفى " دراما تليفزيونية " ، وفى بحث ميدانى ، أو رحلة استكشافية .

وهكذا تتشكل ثقافة الأمة فى منظومة متكاملة ، وفى سياق حضارى ومنظور أخلاقى مرتبط بالحضارة والجذور معزز للولاء والانتماء مرسخ للقيم والمبادئ .

الفصل الثالث

دور الدولة
فى إطار العولمة أو « الكوكبية »

ثم نأتى إلى نقطة هامة وهى دور الدولة فى إطار العولمة

إن معظم مفكرى العولمة والمروجين لها يقطعون بأن شكل الدول قد انقضى عمره الافتراضى، وتلاشت أسباب وجوده، ويتردد تعبير "نهاية الدولة الوطنية" أو "نهاية شكل الدول" *End Of The Nation State* فى كتابات عدد كبير من المفكرين .

ولكننا نرى انه فى ظل رؤيتنا إلى ضرورة التوفيق بين متطلبات العولمة وحيوية تعزيز الكيان الوطنى فإن الدولة لها دور أساسى يجب أن تنهض به.

إن الدعوة إلى إلغاء دور الدولة ، أو تهميش فاعليتها ، منطقها الحقيقى أن "القطيع الإلكترونى" لا يطيق قيودا من أى نوع ، والدولة بما تفرضه من ضوابط تشكل قيدا لا ترحب به مؤسسة "القطيع الإلكترونى" كما أن دور الدولة فى دعم دولة الرفاهية والصالح العام *Welfare State* ورعاية الفئات والشرائح غير القادرة وضمان اكبر قدر ممكن من العدالة فى توزيع الناتج القومى ومسئولية الخدمات الحيوية كالتعليم والصحة ، دور

لايشكل أولوية فى " أيديولوجية " العولمة ، وأقصى ما تفكر فيه كما قلنا من قبل أن تعهد بهذه المسئوليات إلى مؤسسات أو كيانات هلامية أو خيالية تتظاهر بالقيام بهذه المسئوليات ، أو تقوم بها على استحياء بشكل رمزى أو صورى ، بل إن بعض مفكرى العولمة يرون فى هذه المسئوليات عبثا لا فائدة فيه ، وعبئاً يجب التخلص منه .

ولكن كثيرا من المفكرين فى المجتمع الرأسمالى لا يوافقون على هذا النهج سواء على مستوى حكومى أو على مستوى سياسى .

الرأسمالية المجتمعية :

لقد انتهت المنافسة بين الشيوعية والرأسمالية ، وانتصرت الرأسمالية ولكن بدأت منافسة أخرى من أنواع مختلفة من الرأسمالية فعلى حد تعبير " جورج لودج *George Lodge* " أستاذ الاقتصاد الشهير فى جامعة هارفرد : " فإن هناك تباينا واضحا بين النزعة الفردية للرأسمالية الأمريكية الإنجليزية والنزعة الاجتماعية للرأسمالية الألمانية واليابانية " .

بينما تمجد الرأسمالية الفردية الفروق الرهيبة فى الأجور والدخول . . المسئولية الفردية لتنمية المهارات والقدرات . . تعظيم الربح . . حرية الفصل وترك العمل فى أى وقت . . نجد أن الرأسمالية المجتمعية تعظم قيمة مجموعات العمل والمسئولية الاجتماعية للتدريب وروح الفريق والولاء للمؤسسة .

إن ترك العمل والانتقال إلى مؤسسة أخرى فى اليابان لمجرد مزيد من الأجر يكاد يصل إلى مرتبة العمل المشين المدان اجتماعياً .

إن الرأسمالية المجتمعية تنتظر بل وتطالب الشركات والمؤسسات بأن تستثمر جزءاً هاما من أموالها فى تدريب وتنمية مهارات قوتها العاملة ، بينما فى أمريكا وإنجلترا هى مسئولية فردية بحتة .

ويتبلور على المستوى الحكومى هذا الاتجاه فى أوربا فى أن الدولة فى ألمانيا _ وهى التى تقود عمليا الاتحاد الأوربى _ تمتلك حصصاً كبيرة فى عدد كبير من الصناعات الحيوية : الطيران . . السيارات . . الصلب . . الكيماويات . . القوة الكهربائية . . النقل . . أكثر من أى دولة غير شيوعية على ظهر الأرض .

وترى ألمانيا بهذا أنها تمتلك نظاما اقتصاديا هو اقتصاد السوق الاجتماعى *Communitarian Capitalism* .

كما أن الدولة كما يرى " وليام نوك *William Knoke* " فى كتابه عن الطريق الأساسى نحو القرن الحادى والعشرين : " أن الدولة إن بقيت لها مسئولية واحدة ، أو وظيفة واحدة ، فان التعليم هو هذه المسئولية ، وهو قطعا هذه الوظيفة ، وأنه لا شىء آخر يمكن أن تقدمه

الدولة من طرق وبنية أساسية وقوانين وأمن يمكن أن يقترب فى أهميته من التعليم.

وانه بدون التعليم فإن كل شىء آخر سيتقوض.. الاقتصاد سينهار.. القيم والأخلاق ستتلاشى.. العنف والجريمة سيزدادان وإن الأمن سيتدهور.

الطريق الثالث :

بدأت فى مناطق متعددة من العالم عملية البحث عن صيغة أخرى حيث ظهرت فى أوروبا، وخاصة فى بريطانيا فى حكومة "تونى بلير" وفى حزب الطريق الثالث، أفكار جديدة للديمقراطية الاشتراكية أو الديمقراطية الاجتماعية، أو الطريق الثالث.

ومصر فى هذا الصدد تمثل نموذجا رائعا للطريق الثالث، وصيغة فريدة للتوفيق بين مقتضيات العولمة وضرورات الوطنية.

مصر كما سبق أن بينا.. كانت منذ فجر التاريخ من أقدم الدول والمجتمعات التى انفتحت على العالم تأثيرا وتأثرا، كانت مصر من أقدم العصور معبرا للتجارة والرحلات والأفكار، كما كانت مصدر إشعاع دائم للتنوير والثقافة.

ومن حق الرئيس مبارك علينا.. أن نذكر أنه كان أول من طلب الانفتاح الكامل على العالم من حولنا، وانعكس هذا فى اهتمامه البالغ

بالعلاقـات الدوليـة وسـعيه المتواصـل ، يجـوب الدنيـا شـرقاً وغربـاً لإقامة الجسور، وتعميق العلاقـات كـان يـدرك مبكـراً أهميـة الدخـول إلى العالمية .

استطاع أن يستثمر العلاقات الدولية المتميزة فى إعلاء شأن بلده فى المحـافل الدوليـة . وأصبح لنـا اليـوم صـوت مؤثـر فـى دوائـر صنـع القـرار الإقليميـة والدولية كمـا كـان لعلاقاته الدوليـة المتمـيزة دور هـام فـى إسـقاط جزء كبير من الديون التى كانت تثقل كاهل الاقتصاد المصرى .

كما كان الرئيس مبارك من أوائل المدركين للأهميـة المتناميـة لثـورة "التكنولوجيـا" والمعلومـات، واعتـبر أن دخـول مصـر عصـر "التكنولوجيـا" المتقدمـة هـو التحـدى الأكـبر أمـام مصـر فـى المرحلـة القادمة ، وحرص على بناء بنية أساسية لعصر الإنتـاج كثيف المعرفة وتزويـد الأطفـال والشـباب بالخـبرات والقـدرات التـى تمكنـهم مـن الدخول إلى المنافسة العالمية .

وفى كل هذه المراحل - التى كانت استعداداً واستشرافا لمواجهة العولمة والدخول إلى العالميـة - كـان حريصـا على البعـد الاجتمـاعى ودعـم السلام الاجتماعى ، والتأكيد على الهوية والانتماء ، وعلى حرصه البـالغ على كرامـة الوطـن واسـتقلالية قـراره ، ودعوتـه المسـتمرة لتدعيـم المؤسسـات الوطنية القومية لمواجهة التكتلات العالمية الكبرى .

وحينما اقتضت ضرورات مواجهة تحديات العولمة أن تحدث مصر تغييرا أساسيا فى الاقتصاد المصرى ، وأجرت إصلاحا اقتصاديا جذريا ، كان موقف الرئيس مبارك واضحا وحاسما تجاه المؤسسات المالية الدولية وعلى رأسها صندوق النقد الدولى .. إن الإصلاح سيكون مصرى الهوية ، مراعياً للسلام الاجتماعى ، وليس بشروط صندوق النقد الدولى .

كما كان تأكيده الدائم على استمرار دور الدولة ، وتأكيد فاعليتها فى دعم غير القادرين ، وفى تحقيق السلام الاجتماعى ، وفى تنمية القدرة الذاتية للوطن فجعل التعليم هو المشروع القومى الأكبر لمصر، وأكد مراراً على أهمية دور الدولة فى صيانة السلام الاجتماعى واستمرار دورها فى دعم غير القادرين والحفاظ على مجانية التعليم .

كما كان حرصه البالغ على تدعيم الأمن القومى المصرى بأبعاده الدفاعية والاقتصادية والتعليمية .

إن هذه التجربة العملية تثبت أن مواجهة العولمة ليست بالتناطح والتصادم معها ، كما تثبت فى نفس الوقت أن الوطنية لها دور أساسى فى دعم قدرة المجتمع ، وتنمية طاقاته ، والحفاظ على استقراره وهويته ، وعلى إعداد الانسان المعتز بنفسه .. المنتمى إلى وطنه .. المتفتح على الإنسانية كلها بلا استعلاء وبغير عقد نقص .

الديمقراطية الاجتماعية أو الاشتراكية :

ويبرز الآن فى أوربا - وخاصة فى بريطانيا فى حكومة " تونى بلير" - اتجاه آخر يبلور أيضاً دوراً أساسياً للدولة بعد سقوط الشيوعية ، والأزمة الراهنة التى تواجهها الرأسمالية التقليدية ، وهو ما يعرف باسم " الطريق الثالث " الذى تحدث عنه " انثونى جيدينز " *Anthony Giddens* مدير كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى لندن والمرشد الفكرى " لتونى بلير " .

يتلخص هذا الطريق الثالث بما يعرف باسم الديموقراطية الاجتماعية أو الديموقراطية الاشتراكية ويتأسس على عدة مبادئ :

انه لا سلطة بلا مسئولية ، وان الديموقراطية يتعين أن تكون حقيقية وشفافة ، أنه من المهم توسيع دائرة الملكية فى المجتمع إما باشراك متزايد للعاملين فى كل موقع فى حق الملكية عن طريق قيامهم بتملك أسهم أو أنصبة معينة ، أو عن طريق التوسع فى الملكية التعاونية .

وأن ذلك من شأنه تدعيم الاستقرار السياسى والسلام الاجتماعى كما أن الدول والمجتمعات يجب أن تستمر فى دعم غير القادرين والمعرضين للتهميش ، وأن الدعم يجب أن يكون فى صورة إيجابية تقوى هؤلاء الضعفاء وتسلحهم بخبرات وقدرات على أعلى مستوى من خلال تدريب وتعليم كفء بحيث تمكنهم من اللحاق بمسيرة المجتمع المنتج، ومعاودة العمل الفعال وأن الإنفاق على التعليم والتدريب وإعادة التأهيل هو أجدى

اقتصاديا من الإنفاق على دعم التأمين على البطالة ، وأن الدولة يجب أن يكون لها دور قوى فى إدارة المخاطر والأزمات والوقاية منها ، وأن الدولة يجب أن تشرك المجتمع المدنى المبنى على العمل التطوعى والمبادرات الفردية والجماعية وإن القطاع الثالث فى المجتمع القائم على العمل غير الحكومى أو العمل الأهلى يمكن أن يلعب دوراً هاماً فى تدعيم الديمقراطية ورعاية غير القادرين والتكافل وتعظيم الإحساس بالمسئولية، والتعاطف بين أفراد المجتمع كما أنه فى نفس الوقت لا يلغى التطلعات الفردية ولا استقلالية الأفراد وإحساسهم بذاتهم ويقدراتهم وتحقيق طموحاتهم .

إن ظهور هذا التيار المتنامى فى حد ذاته دليل على أن هناك الكثيرين يرون أنه لابد من بديل إنسانى " للقطيع الإلكترونى " وسيطرته الماحقة.

كما أنه برهان واضح على أن الجوانب الإنسانية فى البشر لازالت تمثل اهتماماً ورهاناً من جانب كثير من المثقفين والمصلحين والمفكرين .

وأنه فى عصر الهيمنة المادية والغلبة المالية وتفشى الانتهازية والميكيافيلية فان ضمير العالم لا زال يطالب بأن لا نغفل عوامل القيم والمبادئ وسلوكيات التعاون والتراحم والتكافل .

وأنه لازال هناك من يؤمن بإمكان وجود حياة أفضل فى ظل مناخ أعدل وفى سياق قيم إنسانية وروحية ، لا تقهرها المادة ، ولا تطغى عليها الأنانية

ولا تطمسها الأطماع والشهوات ، وان الأمل فى المستقبل لازال يقف فى وجه المتشبثين بالكسب السريع، والتكالب المهين على الغنائم والاسلاب .

إن الرأسمالية المادية بلا مسئولية اجتماعية - والتى شعارها " دعه يعمل دعه يمر " *Laissez faire Laissez passer* - سياسة بلا قيمة وبلا هدف ، لأنه فى ظل هذه السياسة لا أحد مسئول عن أحد آخر، وهذه أنانية بغيضة وغير مسئولة .

الرأسمالية كفكرة لابد أن تتضمن رأس المال بكل أنواعه ، رأس المال الاجتماعى بجانب رأس المال الاقتصادى .

إن اعتبار البشر - وخصوصاً الموهوبين - مجرد ثروة بشرية قابلة للاستثمار نظرة منقوصة ؛ فالموهوبون هم فى الأصل آدميون ، وهم أكبر من أن يكونوا مجرد استثمار، وهم أهم من أن يشكلوا فقط مجرد ثروة .

من المهم جداً أن نفرق بين المواطنين والمرتزقة : المواطن يخدم لإيمانه بقضية أو رسالة ، ولحبه لوطن أو جماعة ، أما المرتزقة فيخدمون فقط من يدفعون لا تهم الرسالة ، ولا يهم المضمون .

لابد أن تنعكس هذه المعانى فى نوعية المعاملة التى تعامل بها الدولة ومؤسساتها ، بل وكل المؤسسات الخاصة المواطنين والموظفين والعاملين .

يقول " فريدريك ريتشفيلد " *Frederick Reichfield* : " إن التجربة أثبتت أن نقص الولاء فى الموظفين والمستثمرين والعملاء ينقص الإنتاجية بدرجة تصل إلى ٥٠٪ " .

والمجتمع الرأسمالي أو أى مجتمع آخر لا يعرف فضيلة الكفاية والقناعة يكون دائماً عرضة للإفراط والتجاوز الذى قد يصل إلى درجة الفحش .

إن الجانب الاجتماعى فى الرأسمالية يجب أن ينال رعاية أكثر . . إن آليات وقوى السوق لا ترى فى كثير من الأحيان هذا الجانب ، ولا تلقى له بالاً أو تقيم له وزناً ، وهى لا تعترف إلا بالأشياء والخدمات التى لها سعر أو ثمن . ولكن ماذا عن خدمات ومهام أساسية فى المجتمع لا يمكن تسعيرها ؟ فماذا عن الواجبات المنزلية لربة البيت ؟ ماذا عن متطلبات وواجبات الأبوة والأمومة التى لا سعر لها ؟

إننا فى حاجة إلى نظرة جديدة تضع الاعتبارات الإنسانية فى سياق واهتمام المجتمع الرأسمالي ليس من منطلق العمل الخيرى أو لاعتبارات أخلاقية فقط ، وإنما من منطلق الحرص على المجتمع نفسه .

إن أزمة المجتمع الرأسمالي فى إطار العولمة أزمة حقيقية . ويرى " ليستر ثورو " فى كتابه (مستقبل الرأسمالية *Future of Capitalism*) : " إن طبقة البروليتاريا ليس لها أهمية كبيرة ؛ فهى فى رأيه لا تشكل خطر القيام بثورة ، وهم فى الولايات المتحدة على أية حال من الفقر بحيث لا يشاركون حتى فى التصويت " .

وهذا الرأى بالطبع محل نظر، وهو فى تقديرى فيه تبسيط ، وتسطيح للأمور لا يستقيم مع الإمكانات والاحتمالات التى فرضتها ثورة "التكنولوجيا " والاتصالات والتى هى ليست بعيدة عن متناول حتى المهمشين والمستضعفين .

لكن على أية حال يرى " ثورو " أن الخطر هو من الطبقة الوسطى ومستوى تطلعاتها وأن الطبقة الوسطى المحبطة حالياً يمكن أن تؤدى إلى ثورات حقيقية ، إنهم يتلقون رسالة واضحة بأن طموحاتهم القديمة أصبحت بالية وأنهم لن يحصلوا عليها .

والتفاوت الضخم فى مستوى الدخول بين الشريحة الغنية فى المجتمع والأغلبية الفقيرة تزداد عمقاً ، والفجوة تزداد اتساعاً .

أولا : بزيادة دخل الأغنياء .

وثانيا : بازدياد فقر الفقراء ، كما أن التعليم العالى وهو القوة الأساسية التى تكبح جماح التهاوى على السلم الاجتماعى أصبحت مكلفة وأحياناً فوق مقدرة أفراد الطبقة الوسطى .

وثالثا : أن المجتمع الرأسمالى لا يضع فى أولوياته أو حتى فى مسئولياته أن يستثمر أموالاً كثيرة فى تعليم عال يستغرق ١٦ سنة ويتكلف ٢٥٠,٠٠٠ دولار للفرد فى المتوسط ، ولا يشكل فارق الدخل بين خريج الجامعة

من البيض الأمريكيين الذى يبلغ متوسط دخله ٤٢،٢٥٩ دولارا وبين متوسط دخل خريج المدارس الثانوية ٢٨،٧٤٧ دولارا ، وهو فارق كبير لا يشكل هذا فى تفكير الرأسمالية سبباً كافياً للاستثمار فى التعليم العالى .

ولا يدخل أيضاً فى حسابهم أن إنتاجية العامل المتعلم تعليماً عالياً تقل فى مجتمع غير متعلم تعليماً عالياً ، وهى اعتبارات اقتصادية لها وجاهتها وتتجاهلها دون مبرر الرأسمالية المتحللة من مسئولية اجتماعية .

وتذكرنا هذه الرؤية قصيرة النظر بالأنشودة البروسية للأطفال :

لعدم وجود مسمار ضاع الحذاء .

ولضياع الحذاء ضاع الحصان .

ولضياع الحصان ضاع الفارس .

ولضياع الفارس ضاعت المعركة .

ولضياع المعركة ضاعت المملكة .

خاتمة

احتفل العالم من شرقه إلى غربه بحلول الألفية الثالثة ، واحتفلت مصر بحلول الألفية السابعة ، ومع اختلاف التوقيت ، وتنوع الثقافات وتباين مظاهر الاحتفالية العالمية ، كان العالم كله يتابع تباشير بزوغ فجر جديد تتنازعه عوامل مختلفة من الأمل والقلق . . من التفاؤل والتساؤل . . بينما كان ملايين من الفقراء والبؤساء مشغولين عن هذا كله بالسعى وراء لقمة عيش ، أو شربة ماء أو البحث عن ملجأ ، أووسيلة يتقون بها أطنان القنابل التى تلقى عليهم فى الشيشان ، أو الهرب من محاولات التصفية العرقية والإبادة الجماعية فى البلقان وآسيا وأفريقيا .

وبينما كان بعض أصحاب الملايين أو المليارات يبحثون عن ملذات جديدة ينفقون فيها أموالهم ، ويستهلكون فيها أوقاتهم ، كان كثير من المثقفين يتحاورون فى كل مكان عن الإعصار الصامت الذى اجتاح العالم فى إطار العولمة ، وعن مصير الكيانات القومية ، وعن تأثير " التنين الإلكترونى " ذى الألف مخلب على الإنسان وآدميته .

إن رؤية " فوكوياما " المنتشى بالتقدم الأمريكى " نهاية التاريخ " هى فى تقديرى مصادرة على الاجتهاد والتقدم ، أو بالأحرى مصادرة على المطلوب كما أن نبوءة " هنتينجتون " حامل لواء الهيمنة الغربية تمثل مرحلة أخرى من مراحل الصراع على التحكم والسيطرة .

ولازلت أرى أن مجال الإبداع الإنسانى يتسع لتجارب أفضل لحياة تشمل الجميع ، تسود فيها قيم الجوار والتسامح وحق الاختلاف والتعاطف والاهتمام المشترك ، وتزدهر فيها ملكات الإبداع والابتكار.

ومادامت العولمة أمراً واقعاً قد فرض نفسه على الأمم والأفراد فلا بديل أمامنا جميعا من التعامل مع الظاهرة بطريقة موضوعية وبنظرة مستقبلية .

لازلت أؤمن أن قوى الخير فى هذا العالم سواء كانوا مفكرين أو علماء أو أدباء أو فنانين أو رجال أعمال يدركون مسئوليتهم الاجتماعية ؛ أو كانوا دولاً أو مؤسسات عالمية أو محلية بما فيها الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية . لازلت أؤمن أنهم قادرون على إضفاء وجه إنسانى على العولمة ولازالوا يستطيعون أن يشكلوا مجتمعاً عالمياً لنظام العولمة .

مجتمع يستطيع أن يستفيد من الطاقات الهائلة والفرص المتاحة لإسعاد البشر ورفع مستوى الحياة لكافة الأمم وكل الأفراد .

مجتمع يحرص على أن يكون للعولمة بجانب الأسواق ، مواطنون يجمعهم إحساس بالمسئولية المشتركة تجاه المجتمع والإنسان . ويؤلف بينهم مشاعر إنسانية راقية ، ومشاركة وجدانية حانية ، وتربط بينهم

علاقات اجتماعية سليمة ، ويظلهم جميعا صالح عام يجنبهم الشطط والجشع والأنانية .

لازلت على يقين أن الإنسان ذلك المبدع الفنان الذى يتحمل مسئولية إعمار هذا الكون ، واستمرار الحياة فيه ، قادر على إيجاد صيغة تحقق التوازن بين متطلبات التقدم ومحركات التنافس واعتبارات السوق وبين ضرورات العدالة الاجتماعية والتعايش السلمى وإتاحة فرص الحياة الكريمة لكل مواطن على هذه الأرض .

لازلت أرى أن الإنسان - لكى يستطيع مواصلة رحلة الحياة على هذه الأرض - سيظل دائما فى احتياج إلى هدف وغاية ، وأنه لابد له من رسالة يؤمن بقيمة العمل بها والتضحية من أجلها .

لازلت أرى أنه مهم جدا - لاستمرار الحياة - أن نعرف مفهوم الكفاية والقناعة ، وأن ندرك حكمة : " أين يجب أن نقف " ؟ ومتى يتعين علينا أن نتوقف ؟ لابد أن نصل إلى توازن بين الحرص على التقدم وهو ضرورة وبين حكمة الاستقرار والقناعة وهى قيمة .

التقدم ضرورة ، وهو سباق تتابع وليس صراع تدافع ، التقدم موجات وأجيال يسلم كل منها الراية إلى جيل آخر حتى تستمر الحياة ، وتعمر الأرض .

إننا يجب ألا ننساق أبداً إلى سباق للعمى ، أو حوار للصم ، أو نتورط في تنافس نحو الدمار والهلاك . إن وجود الإنسان في هذا العالم رحلة وإذا كانت الحكمة الخالدة تقول : " أختر الرفيق قبل الطريق " فإن العلاقات الإنسانية بين شركاء هذه الرحلة يجب أن تصان وأن تعمق وأن تحترم .

إن الانتماء في زمن الفضاء ضرورة بقاء ؛ فالانتماء قيمة ومتى تحلل الإنسان من قيمه تخلى عن كثير من دعائم إنسانيته والتحلل من الانتماء سلسلة متى بدأت تداعت وتلاحقت تأثيراتها ومضاعفاتها، ونهايتها واحدة أن يخسر الإنسان نفسه . إن مفكرى هذه الأمة عليهم واجب مقدس . . أن يحافظوا على الحضارة والهوية، وأن يسهموا بفكرهم في ضمان حق الأجيال القادمة في حياة أفضل، لا يتخللها العنف، ولا يعصف بها الدمار ولا تسطحها سيطرة التكنولوجيا على الثقافة والجذور، ولا يجرفها طوفان المعلومات إلى التشتت والضياع .

ولعلنا نتذكر هنا كلمات دانتي الرائعة " إن أشد الأماكن حرارة في جهنم محجوز للذين يقفون على الحياد في أوقات الأزمات " .

دكتور حسين كامل بهاء الدين

المراجع العربية

* أدولف إرمان (١٩٥٦) : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ترجمة دكتور عبد المنعم أبو بكر - محرم كمال، مكتبة النهضة المصرية .

* جلال أمين (١٩٩٨) : العولمة ، دار المعارف .

* السيد يس (١٩٩٩) : العولمة والطريق الثالث، ميريت للنشر والمعلومات .

* د. جمال حمدان (١٩٦٧) : شخصية مصر ، كتب الهلال .

* د. سليمان حزين (١٩٩١) : حضارة مصر (أرض الكنانة) دار الشروق .

* د. طاهر عبد الحكيم (١٩٨٦) : الشخصية الوطنية لمصر ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع .

* د. فخرى لبيب (١٩٩٧) : صراع الحضارات أم حوار الثقافات مطبوعات الثقافة .

المراجع الأجنبية

- Alvin Toffler & Heidi Toffler, (1995) : *Creating a New Civilization : The Politics of The Third Wave,* Turner Publishing Inc. Atlanta .

- Anthony Giddens, (1999) : *The Third Way : The Renewal of Social Democracy,* Polity Pr.

- Benjamin R. Barber, (1996) : *Jihad Vs. McWorld: How the Planet is Both Falling Apart and Coming Together- - And What This...,* Ballantine Books.

- Charles Handy, (1998) : *The Hungry Spirit : Beyond Capitalism : A Quest for Purpose in the Modern World,* Broadway Books, New York.

- Dennis Hensley, (1998) : *Millenium Approaches,* Avon.

- Gary H.Kah, (1996) : *En Route to Global Occupation,* Vital Issues Pr.

- George Soros, (1998): *The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered,* PublicAffairs.

- Hamish McRae, (1995) : *The World in 2020 : Power, Culture and Prosperity,* Harvard Business School Press.

- James Gleick, (1988): *Chaos: Making a New Science*, Penguin USA.

- Jeremy Rifkin, Robert L. Heilbroner (1996): *The End Of Work: The Decline of the Global Labor Force and the Dawn of the Post-Market Era*, Putnam Pub Group.

- John L. Petersen, (1994) *The Road to 2015 : Profiles of the Future*, Waite Group Press.

- John Naisbitt, (1995): *Global Paradox*, Avon.

- John Naisbitt, Nana Naisbitt, Douglas Philips, (1999) : *High Tech, High Touch : Technology and Our Search for Meaning*, Broadway Books.

- Kenichi Ohmae, (1995) : *The End of the Nation State : The Rise of Regional Economies*, Free Press.

- Lester C. Thurow, (1997): *The Future of Capitalism: How Today's Economic Forces Shape Tomorrow's World*, Penguin USA.
- Michael Fossel, (1996) : *Reversing Human Aging*, William Morrow & Co.
- Neil Postman, (1993): *Technopoly: The Surrender of Culture to Technology*, Vintage Books.

- Noam Chomsky, (1994) : *World Orders, Old and New,* Columbia University Press.
- Paul Kennedy, (1994): *Preparing for the Twenty-First Century,* Vintage Books.
- Peter Ferdinand Drucker , (1993) : *Managing for The Future : The 1990s and Beyond,* Plume.
- Robert B. Reich, (1992) : *The Work of Nations : Preparing Ourselves for 21st Century Capitalism,* Vintage Books.
- Thomas L. Friedman, (1999) : *The Lexus and the Olive Tree,* Farrar Straus & Giroux .
- William Knoke, (1997): *Bold New World: The Essential Road Map to the Twenty-First Century,* Kodansha International.
- William S. Smith, (1931), *Ancient Egypt As Represented in The Museum of Fine Arts,* Cambridge .

نبذة عن المؤلف

الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين

* حاصل على شهادة بكالوريوس طب جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ ودكتوراه طب الأطفال عام ١٩٥٩ .
* أمين منظمة الشباب المصرية عام ١٩٦٥ .
* أمين المهنيين بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى عام ١٩٦٨ .
* أستاذ طب الأطفال بجامعة القاهرة عام ١٩٧٣ .
* رئيس قسم طب الأطفال ومدير مستشفى الأطفال الجامعى الجديد بالقاهرة ١٩٨٣-١٩٩١ .
* رئيس الجمعية المصرية لطب الأطفال منذ عام ١٩٨٩ حتى الآن .
* رئيس الاتحاد العربى لطب الأطفال١٩٨٩ إلى١٩٩٣ ، ومن ١٩٩٩حتى الآن.
* رئيس الجمعية الدولية لطب أطفال المناطق الحارة ١٩٩٣ - ١٩٩٦ .
* وزير التعليم منذ عام ١٩٩١ وحتى الآن .

بعض جوائز التكريم الحاصل عليها :

* درع الشرف من نقابة الأطباء المصرية فى عامى ١٩٨٤ و١٩٩١ .
* الجائزة الدولية لصحة الطفل من منظمة الصحة العالمية عام ١٩٨٩.

* الأستاذية الفخرية من جامعة طشقند بأوزباكستان عام ١٩٩٢ .
* درجة الزمالة للجمعية الملكية للأطباء والجراحين بجلاسجو بالملكة المتحدة عام ١٩٩٣ .
* جائزة دوجراماتشى (لرواد التعليم الطبى فى العالم) من الجمعية الدولية لطب الأطفال عام ١٩٩٥ .
* الدكتوراه الفخرية فى العلوم من جامعة جلاسجو بالملكة المتحدة يونيو١٩٩٧.
* الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة إيست أنجيليا البريطانية يوليو١٩٩٧.
* الدكتوراه الفخرية من جامعة هاشيتيبى التركية عام ١٩٩٧ .
* درع اليونيسيف بمناسبة اليوبيل الذهبى للمنظمة عام ١٩٩٧ .
* الدكتوراه الفخرية من جامعة سانت أولاف بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩ .
* جائزة الامتياز الدولية من الهيئة الجامعية للتعليم المستمر من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٩ .
* ميدالية المهاتما غاندى من اليونسكو عام ٢٠٠٠ .
* اختير كأحد الشخصيات العامة والعلمية فى عدد كبير من الموسوعات العالمية .

المؤلفات :

* الأسلوب العلمي في العمل السياسي عام ١٩٦٨ .
* طب الأطفال وأساسياته عام ١٩٧٥ .
* دليل الآباء في نمو وتنشئة الطفل عام ١٩٩٠ .
* طفلك وكيف تحميه من الأمراض الشائعة عام ١٩٩٠ .
* التعليم والمستقبل عام ١٩٩٧ .
* أكثر من مائة بحث في طب الأطفال .

في المكتبات

التعليم و المستقبل

دكتور حسين كامل بهاء الدين



رقم الإيداع	٢٠٠٠/٤٦٠٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5977-2

١/٢٠٠٠/٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مع حلول الألفية الثالثة تندفع البشرية دفعاً نحو العولمة.

هل ياترى هو سباق نحو القاع ، أو هو تدافع نحو الهاوية، أم هو الحلم المخادع للبشرية؟

هل هى نهاية التاريخ كما يدعى فوكوياما، أم هى مرحلة صدام حضارات كما يصورها صامويل هنتينجتون؟

أم هى عصر جديد تتوازن فيه النهضة التكنولوجية الهائلة، والثورة المعلوماتية الهادرة، مع الاعتبارات الإنسانية والقيم الأخلاقية، وتسود فيه قيم العدل والترابط الاجتماعى، وتسمو فيه الفنون والآداب.

عصر جديد تتلازم فيه آفاق التقدم فى عصر العولمة مع روابط الانتماء والولاء للإنسان والعائلة والوطن والمجتمع الإنسانى كله، وتتعايش فيه إمكانات العولمة الإيجابية مع مسئوليات الالتزام، وقيم الهوية والحضارة.


دار المعارف
٠١/١٧٨٦٤٠